شبابنا آمالنا

القراءة وقاية وعلاج

د. عبد الغني عبود

الدار المصرية اللبنانية

شبابنا آمالنا

الدار المصرية اللبنانية

الدار المصرية اللبنانية

16 ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : 3923525 ـ 3936743
فاكس : 3909618 ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : 2022 ـ القاهرة
رقم الإيداع : 9742/ 2001
الترقيم الدولى : 1 - 674 - 270 - 977

الطبعة الأولى : شوال 1422 هـ ـ يناير 2002 م
جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
تليفون : 3256098 - 3251043

شبابنا آمالنا

القراءة.. وقاية وعلاج

أ.د. عبد الغنى عبود
كلية التربية ـ جامعة عين شمس



لماذا هذه السلسلة؟

شبابنا آمالنا . .

صيحة تنطلق من احترامنا لهذه الفترة العمرية من حياة الإنسان ، ولعل هذا الاحترام ينال مع المراحل النهائية السابقة كل الاعتبار؛ لأن مرحلة الشباب من المراحل العمرية التى تتميز بالقابلية للنمو فى النواحى الجسمية والاجتماعية والنفسية والعقلية والتعليمية ، إلى جانب القدرة على الابتكار والمشاركة الفعالة فى إحداث التغيير والتطوير فى المجتمع الذى يعيشون بين جوانبه ، لأن الشباب هم عماد الأمة ، وأساسها الراسخ الذى يقوم عليه بنيانها . . فإن صلحوا صلح البناء كله ، وإن فسدوا أو اهتزت قيمهم ضعف البناء ، حتى لقد قيل فى أحد الأقوال المأثورة : « أمة بلا شباب أقوياء ، هى أمة بلا مستقبل ، محكوم عليها بالفناء ! » .

ولما كانت قضايا الشباب من أهم القضايا التى تهتم بها المجتمعات الساعية إلى التقدم ؛ فقد اهتمت « الدار المصرية اللبنانية » بإصدار سلسلة عن الشباب ليقرأها الشباب العربى بنفسه ، فيستطلع فيها أمور يومه وغده ، ويقف على مشاكل حياته وقفة جد تنير له الطريق ، وتعرفه بما يجب عليه فعله ، وذلك من خلال هذه السلسلة « شبابنا آمالنا » .

وقد حرص محررو هذه السلسلة على أن تخاطب الشباب مباشرةً وليس الآباء أو الأمهات أو المعلمين ، فضمنوها موضوعات تهم الشباب العربى من المحيط إلى الخليج ، حيث إن الاهتمامات بين الشبيبة العربية واحدة تقريبا ، وإن تباينت من بلد إلى آخر !

كما حرص محررو السلسلة على أن تناقش بعض القضايا التى تقترب معهم وبهم من الكمال النهائى ، إيمانا منهم بأن هذه المرحلة قد يظهر خلالها بعض الاضطرابات السلوكية ، وبعض جوانب التفاعلات الاجتماعية التى يظهر فيها القبول تارة ، والرفض تارة أخرى . . إلى جانب أنها فترة يظهر فيها ـ كذلك ـ جوانب الانتماء ، والمسئولية ، والعطاء ، إذا أعدت الإعداد السليم . . أو قد نرى فيها بعض الملامح السلوكية التى تجمح ببعض الشباب إلى طريق الاندفاع والثورة والرفض والتبرم والاعتراض ! لذا . . كانت المحاور الرئيسية التى تقوم عليها هذه السلسلة هى : الاهتمام بالجانب الثقافى المعرفى ، والجانب الأخلاقى الدينى ، والجانب النفسى الاجتماعى ، والجانب الرياضى الترويحى ، بالإضافة إلى الجانب الإعلامى الإرشادى ، وأخيرا الجانب التأهيلى المهنى . . وذلك من خلال دراسات وآراء كبار الأساتذة والمفكرين التى تقدم قضايا ومشكلات الشباب من منظور أخلاقى ؛ حمايةً ووقايةً للشباب .

وإننا نقدم هذه السلسلة إيمانا منا بأن الشاب العربى الذى ينتسب إلى طائفة العاملين الجادين ؛ ينتسب بدوره إلى فئة الأبرار . . تلك التى تحرسها الملائكة ، لأنهم يعملون من أجل رفعة أوطانهم ، فتحفهم بدعوات صادقة ، وتحذرهم فى نفس الوقت حين يتهددهم خطر الضلال الذى قد يضطرهم إلى القيام بكثير من الأعمال التى تنحرف بهم عن جادة الطريق .

. . والله الهادى إلى سواء السبيل . . ،

تقديم

القراءة نافذة نطل ـ من خلالها ـ على عوالم متنوعة وثرية، وهى المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا أبواب المعرفة والثقافة والتطور ، والقراءة بهذه الرؤية تحقق الوصال بينى وبين الآخر، من خلال ما نقرؤه . . ففى أعماق كل فرد منا «كائنٌ جديدٌ» يريد الخروج إلى عالم النور، وكأنه الوردة التى تريد الخروج من أكمامها، حتى تتفتح وتعبق وتنشر أريجها فى أجواز الفضاء، وليست عملية تحقيق الذات سوى الولادة الروحية، التى تسمح لهذا الكائن الجديد (وأعنى به الكتاب)، إلى أن يحطم شرنقته، من أجل الانطلاق إلى عالم النور. عالم المعرفة والوعى والعلم والثقافة ويقدمها إلى القارىء الغالى.

إن القراءة من خلال هذا الكائن النورانى (الكتاب)، هى الأمل، وهى المستقبل الذى نرجوه لشبابنا ـ آمالنا . . . فصداقة الكتاب لا تعلوها صداقة . . . والعاقل هو الذى يصاحب ما ينفعه ويجعل منه شخصية لها رونقها وعذوبتها .

ومن هنا كان هذا الكتاب . . القراءة وقاية وعلاج .

هيئة التحرير

مقدمــة

قد يكون من نافلة القول إن القراءة محكّ من أهم المحكّات التى تستطيع أن تحكم من وضعهاعلى مدى تقدّم الدول علميا وتكنولوجيا . . ففى البلاد المتقدمة تجد الكتاب مكوّنا أساسيا من مكونات البيت ، إذ يُعدّ جزءا مهمّـا من حياة الفتى والفتاة، يقرءونه فى البيت، وفى الحديقة، وفى وسيلة المواصلات، ولذلك تجد هذا الكتاب صغير الحجم، ليسهُل على الفتى والفتاة اصطحابه، والائتناس به . . بينما فى بلادنا العربية، تجد الوضع مختلفا .

إن الكتاب - فى العقل العربى المعاصر ـ مرتبط بالمدرسة والجامعة ، وبمقرر يؤدَّى فيه امتحان ، لتنتهى مهمة الكتاب بانتهاء الامتحان، بينما هو فى العقل الغربى ـ مثلا ـ أمر مختلف . إنه يتصل بالشخصية وبنائها، وحاضرها ومستقبلها جميعا ، سواء اتصل هذا الكتاب بمقرر دراسى بعينه، أو لم يتصل به .

إنه عقيدة اجتماعية راسخة ، تزرعها الأسرة فى نفوس أبنائها منذ نعُومة أظفارهم، ثم تأتى المدرسة ـ والجامعة ـ فترسخ هذه العقيدة فى النفوس .

ويلعب النظام التعليمى السائد الدور الأكبر فى ترسيخ هذه العقيدة فى النفوس بطبيعة الحال ، مثلما يلعب النظام التعليمى السائد فى بلادنا العربية الدور الأكبر فى توسيع الهوة بين الفتى والفتاة من جانب ، والقراءة من جانب آخر.

ولما كانت القراءة تمثل هذه الأهمية فى حياة الشعوب الساعية إلى التقدم والنماء، فإن الشباب الواعى هو الذى يتجه إلى القراءة، اتجاهَ مَن يرى فيها مستقبله ووعيه ونضجه بإذن الله .

إن هذا الكتاب محاولة لتعديل مسار حياة شبابنا ، فيما يتصل بمسألة القراءة تلك ، نسأل الله أن نكون قد وُفقنا فى عرض قضيته ، عرضا يتحقق به المراد .

وآخِر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين . . . ،

دكتور عبد الغنى عبود

الفصل الأول

لمــــــاذا نقرأ؟



● إن القراءة هناك هى الحياة، وهى الوجود ، وهى إثبات الذات، وهى الحاضر والمستقبل جميعا .

لماذا نقرأ ؟

وهو سؤال إذا سُئِلَه شابٌ من شباب البلاد المتقدمة ، فإنه سيجده سؤالا غريبا !

ذلك أن هذا الشابّ قد أَلِفَ القراءة منذ كان طفلا، فقد عودته عليها الأسرة التى شبّ فى أحضانها، ثم نَمَّتها فى نفسه المدرسة ، ثم الجامعة، ثم عمّقتها الحياة فى المجتمع بعد التخرج، فهى حياة تقوم على المنافسة، ولا ترحم الضعفاء والمتخاذلين، وهى حياةٌ البقاءُ فيها للأصلح، والأصلحُ فيها هو القادر على ملاحقة العصر، والقراءةُ هى الطريق الأمثل لملاحقة هذا العصر، فى كل مجال من مجالات الحياة .

إن القراءة هناك هى الحياة، وهى الوجود ، وهى إثبات الذات، وهى الحاضر والمستقبل جميعا، بالنسبة لكل إنسان، وخاصة أولئك الشباب، الذين تتفتح لهم حياة العمل، وتتفتح لهم ـ بالتالى ـ أبواب المستقبل .

ولأن هدف القراءة عندنا هو الحصول على الشهادة، فإنها ليست قراءة، بالمعنى العلمى للقراءة. إنها مجرد حفظ واستظهار، بلا فهم، ومن ثم فهى قراءة تدمّر الشخصية، أكثر مما تَبنيها . إنها لا تفتح الآفاق أمام الشخصية، بقدر ما تضع هذه الشخصية فى قالب جامد، لا تتعدّاه .

ومع ذلك ، فإن التخرُّج يمكن أن يعنى عند العقلاء منا شيئا آخر .

إنه يمكن أن يعنى التحرُّر من قراءة لا معنى لها ، اضطُرَّ إليها الفتى والفتاة، لاجتياز الامتحان ، والحصول على الشهادة ، إلى قراءة لها معنى ، يصنعه الإنسان بنفسه، لنفسه، ويتبدّى فى اختياره ما يقرؤه ، وفى الكيفية التى تتم بها هذه القراءة.

إن هذا التخرُّج يمكن أن يعنى بداية الانطلاق الحقيقية فى بناء الشخص لذاته، كما هو معنى التخرُّج ـ بالفعل ـ فى البلاد المتقدمة، التى تحدثنا عنها .

إن التخرُّج عندنا يعنى ـ للأسف ـ الانتقال إلى حياة العمل، وقطع الصلة تماما بين الخرّيج وبين القراءة والتعلم ؛ بينما هو يعنى ـ عند غيرنا ـ وفى هذه البلاد المتقدمة خاصة ـ بداية التعلُّم الحقيقية ، وربط ما يتعلمه الإنسان بحاجاته المتجددة على طريق العمل والإنتاج ، بحيث يكون للعلم معنى، وتكون له قيمة، ويكون له مردود .

وإذا ما تعلَّل بعضُنا بأن حياة العمَل عندنا تسير بجهودها الذاتية، منقطعة الصلة بالعلم وتطوّراته، وبأن الارتقاء والترقّى فى حياة العمل تلك، إنما يتوقفان على أمور أخرى، لا علاقة لها بالعلم ولا بالكفاءة . . فإننا نقول لهذا البعض: إننا نحن الذين نسيّر مرافقنا ومؤسساتنا، فحياة العمل عندنا إنما هى حياتنا نحن ، وليست حياة غيرنا، ومن ثم فنحن مسئولون أمام الله وأمام أنفسنا عن تطوير هذه الحياة التى لا تعجبنا نحو الأفضل، ونحن الذين سنعانى من حياتنا فيها، إذا انجرفنا مع تيارها الآسِن، الذى نشكو منه .

وعلى أية حال ، فإن القراءة هى الطريق الأمثل، إن لم تكن الطريق الأوحد، لبناء الشخصية، وخاصة شخصية الشاب، الذى هو فى بدايات الحياة ، بالمعنى الواسع لهذه الحياة، بما فى ذلك حياة العمل بطبيعة الحال .

إن الكتاب الذى تقرؤه ، ليس مجرد حزمة من الأوراق، تجمَّعت تحت عنوان، ولكنه سلسلة من الأفكار المترابطة المتناسقة المتتابعة، التى جرى العُرف على أن تتلخص فى كلمات محدودة، يحملها عنوان هذا الكتاب .

إن الكتاب تجربة متكاملة، مرّ بها مؤلِّفه ، وقدمها لك فى (كبسولة)،

هى هذا الكتاب ، وبذلك وفّر عليك المؤلف أن تخوض هذه التجربة، لتضيف إلى شخصيتك، بلا مشقة ولا عناء .

وقد تكون هذه التجربة، تجربة فى كشف علمى ، أو فى رحلة من الرحلات، أو فى قصة طويلة أو قصة قصيرة، أو فى ديوان من دواوين الشعر، أو فى التاريخ العامّ أو الخاصّ، أو فى الفلسفة، أو فى أىّ فنّ من فنون الحياة، ولا شك فى أن الإنسان عندما يدخل مكتبة ، عامة أو خاصة، إنما يتوجه صوب فنّ بعينه، ليختار مِن بين عناوينه ما يفتّش عنه، وما يريد المعرفة فى مجاله . . أو ليخوض ـ مع المؤلف ـ هذه التجربة التى خاضها .

ولتضيف إلى شخصيتك من خلال القراءة، فإن قراءتك لابد أن تكون هادفة منذ البداية، فالقراءة العشوائية قراءة تدفع إلى الملل والسأم. . أما القراءة الهادفة، فإنها توجهك وجهة بعينها فى إطار مجال ـ أو موضوع ـ بعينه، ثم توجّهك وجهة بعينها أيضا، نحو كتاب بعينه، أو مجموعة كتب بعينها، تحسّ بأنك فى حاجة إلى أن تنمّى نفسَك من خلالها .

وبهذه القراءة الهادفة، التى تُضيف إلى شخصيتك وتنمِّيها ، ستجد نفسك مشغولا دائما، ولن تجد لديك وقت فراغ، تضيّعه فيما لا يفيد من ألوان العبَث التى تملأ الحياة من حولنا، وخاصة فى هذا الزمان الذى نعيش فيه، والذى صارت السموات فيه مفتوحة، بسبب التقدم التكنولوجى، الذى صار يحيط بنا فى كل مكان .

وبهذه القراءة الهادفة، ستجد نفسك تنمو وتكبر وتزيد، وتتشوّق إلى مزيد من المعرفة، وإلى مزيد من القراءة بالتالى، لتستمر فى عملية نُمُوّك اللذيذ ، الذى تزداد إحساسا به، ويزداد إحساسا به المحيطون بك، والمتعاملون معك، من الكبار والصغار على السواء .

وستجد نفسك ـ على صغر سنك ـ ذا رأى ، وذا رؤية .

وستجد نفسك ـ مع الوقت ـ تسير فى طريق الاستقلال النفسى والعقلى .

وستجد نفسك ـ وأنت لا تدرى ـ مضطرًا إلى أن تخوض سلسلة من الحروب، لم تقصد إليها، وإنما فُرضت عليك . . من أولئك الذين جرفتهم الحياة فى تيارها الهادر الغاضب، فاكتفوا بالشهادة التى حصلوا عليها، وراحوا يرتدُّون شيئا فشيئا إلى (الأمية) فى كل شىء .

ولا تحزن، فإن ذلك لا يعنى إلا شيئا واحدا، هو أنك تسير فى الطريق الصحيح .

إلا أنك يجب أن تتجمل ، وستجعلك القراءة تتجمل، وتزداد قراءة ، لتزداد تجمُّلا، وتزداد إحساسا بقيمتك .

وستجد نفسك ـ فى النهاية ـ تشق طريق النجاح . . فى العمل، وفى الحياة، رغم ما تتحمله على هذا الطريق من مضايقات ، ومن مهاترات، ومن دسائس ومؤامرات أحيانا، ومن إحباطات كذلك .

ولكن يكفيك أن تحسّ ـ حيث كنت ـ بأنك إنسان محترم، وبأنك تترفع عن الدنايا، وبأنك قادر على تسيير حياتك، فى الوقت الذى تحس فيه بأن الآخرين يتضاء لون أمامك، وبأنهم يحسون بهذا التضاؤل .

إن الحياة المعاصرة حياة شاقة، وتزداد تعقيدا، والتغلب على مشقاتها وتعقيداتها لا يكون بالانجراف فى تيارها، ولكن بفهمها، والتكيف معها، وفق أسلوب من القيم والمثل العليا الرفيعة، وبشىء من الصبر والمجاهدة، ولن يكون للشاب العاقل من سبيل إلى ذلك إلا بالقراءة، والقراءة، والقراءة .

وسوف يعين على هذا الصبر وتلك المجاهدة، ما نعرفه من أن الشهادة الجامعية ذاتها، التى هى هدف الأهداف، للشباب ولذويهم على السواء فى بلادنا العربية، لا تعنى ـ كما تعنى عندنا فى العالم العربى ـ نهاية عهد

الإنسان بالقراءة ، بانخراطه فى مجال العمل ، وإنما هى تعنى أن الإنسان الحاصل عليها صار قادرا على أن يقرأ فى مجال تخصص ما . . فيفهم ما يقرؤه .

إن عهد القراءة الحقيقة الجادة الهادفة، يبدأ بالحصول على هذه الشهادة الجامعية ، إذا أراد الانسان أن ينجح فى حياته العامة، وفى حياة عمله أيضا .

وعهد القراءة الحقيقية الجادة الهادفة يجب أن يبدأ ـ عند شبابنا ـ فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الثالث ـ بمجرد تخرُّجهم ، من أجل هذا النجاح فى العمل وفى الحياة، ومن أجل تجنب الانحراف فى الحياة العبثية الصاخبة التى تلف الأحياء، وتفسد الحياة، فى عالمنا الثالث، الذى نُبتلى بأن نكون من بين أبنائه . . لعل صلاح هذا العالم الثالث أن يكون على أيدينا نحن .



الفصل الثانى

القراءة أقل تكلفة

القراءة أقلّ تكلفة

كان سهلا ـ منذ نصف قرن من الزمان ـ أن تشترى كتابا، وأن تكوّن مكتبة، وأن تكُون ـ من خلالها ـ رجلا مثقفا بحق . . لو أردت ، ولكن الأمر ـ فى هذا الزمان . . فى مطالع القرن الحادى والعشرين ـ اختلف كثيرا .

إن الكتاب الذى كنتَ تشتريه ـ منذ نصف قرن ـ بعشرة قروش ، تشتريه الآن بعشرة جنيهات، وبعشرات الجنيهات إذا كان هذا الكتاب بلغة أجنبية، مما يعنى أن المشكلة لم تعد مصرية، ولا عرَبية، وإنما صارت مشكلة عالمية ، سببُها ارتفاع أسعار الورق ، وارتفاع تكلفة الطباعة ، وارتفاع تكلفة التسويق أيضا .

لقد كان سيّد العملات فى السوق المصرية ـ مثلا ـ منذ خمسين عاما ، هو القرش الصاغ ، الذى كان يمكن تقسيمه إلى عشرة مليمات ، لكل مليم منها شأن وقيمة وقوة شرائية . . فإذا بهذا القرش الصاغ ـ السيد ـ ذاته ـ لا وجود له ، بعد أن صارت أقل عملة موجودة فى السوق المصرية هى قطعة فضية من فئة القروش الخمسة ، كان المليم قديما أكثر احتراما ووقارا منها . . وكان هذا القرش الصاغ ، هو ثمن الصحيفة اليومية ، التى تجاوز ثمنها الآن الخمسين قرشا ، ووصل إلى الجنيه أحيانا . . بسبب ارتفاع سعر الورق ، وارتفاع سعر الطباعة . . وغيرها .

وإذا كان سعر الصحيفة اليومية قد ارتفع من قرش صاغ واحد إلى أكثر من خمسين قرشا ، فهل تستكثر على الكتاب أن يرتفع سعره من عشرة قروش إلى عشرة جنيهات؟

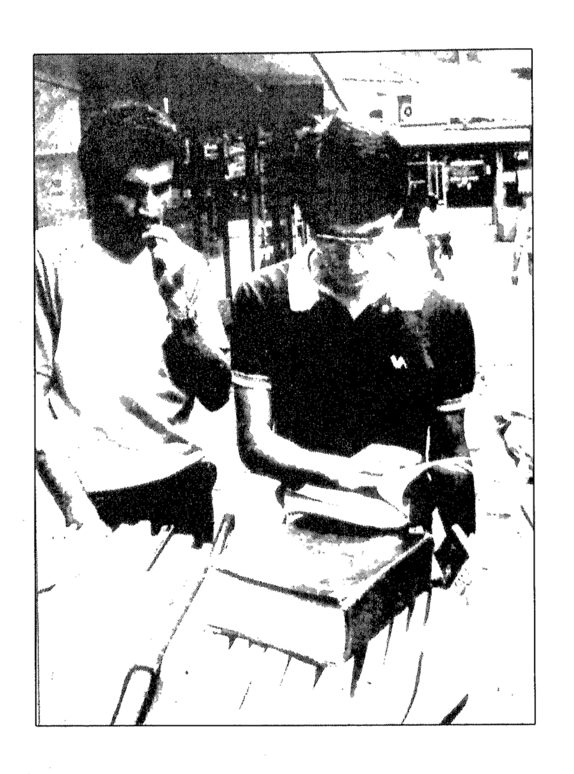
لقد صارت القراءة ـ بالفعل ـ بما فى ذلك قراءة الصحف اليومية ـ مكلّفة، ولكن القراءة ـ مع ذلك ـ تظلّ الأقلّ تكلفة .

ذلك أنه لم تكن أسعار الورق والطباعة هى التى أخذت وحدها فى الارتفاع فى السنوات الخمسين السابقة، ولكن كل شىء فى الحياة قد غلا، وارتفع ثمنه، ولم يتوقف عن هذا الارتفاع . . حتى رغيف الخبز، الذى لا يستغنى عنه غنى ولا فقير . . ارتفع سعره من خمسة مليمات (نصف قرش صاغ) إلى خمسة قروش ، رغم دعم الدولة فى مصر له دعما يرهق ميزانيتها . وفى خارج إطار هذا الدعم . . يصل ثمنه إلى خمسة وعشرين قرشا أحيانا، يدفعها ـ عن رضا ـ أولئك الذين تَعِفّ نفوسهم عن التعامُل مع هذا الرغيف الحكومى المدعوم، التى ترفض القطط والكلاب أكله أحيانا .

وإذا نحن نظرنا إلى قضية الكتاب وارتفاع أسعاره بشكل مخيف ، فى ظل الارتفاع الجنونى فى أسعار (كل شىء)، وجدناه أمرا طبيعيا . . لا غرابة فيه .

وقد يقول قائل إن هذا الارتفاع فى أسعار كل شىء مما يجعل من المنطقى وضع الكتاب فى آخر أولويات أى عاقل فى هذا الزمان . . وأقول إنه لهذا الارتفاع فى أسعار كل شىء ، يكون من الحِكمة إعطاء الكتاب أولوية مطلقة .

ذلك أن الكتاب ـ رغم ارتفاع أسعاره ـ يظل هو الضمانة الوحيدة لضبط ميزانية الفرد والأسرة، فهو ـ إضافة إلى تنميته للشخصية ـ كما سبق ـ ممتصّ جيد لوقت الفراغ ، الذى إن لم يقضه الشاب فى عمل مفيد كالقراءة أو الرياضة مثلا، فإنه سيقضيه فى سهرة من السهرات، فى المنزل أو خارجه . ولو أنك قمت بعملية حسابية بسيطة لتكلفة سهرة من السهرات البريئة، العاديّة، المتواضعة، فسوف تجدها تزيد كثيرا عن ثمن الكتاب .



● ليس ضروريا أن تشترى كل ما تريد قراءته من كتُب، فثمّة مكتبات عامة كثيرة، تفتح صدرها لك

والفرق كبير جدا ، بين سهرة تقضيها مع كتاب ، تخرج منها مُضافا إليك الكثير والكثير ، وبين سهرة تقضيها مع (شلّة)، تخرج منها وقد خسرت الكثير والكثير . . اللهم إلا إذا كانت هذه السهرة سهرة علمية بطبيعة الحال .

يُضاف إلى ذلك أنك لا تلتهم الكتاب ـ حين تشتريه ـ فى جلسة واحدة، أو فى سهرة واحدة، كما يحدث مع طعام سهرة من السهرات وشرابها، وإنما يبقى معك ـ وتبقى معه ـ لا يوليّك ظهرَه إلا إذا ولَّيته أنت ظهرَك، ويهشّ لك كلما أقبلت عليه، ولو بعد سنين من هَجره .

وهكذا تكون تكلفة أىّ كتاب من الكتب، دون تكلفة سهرة من هذه السهرات المتواضعة بكثير ، فى حقيقة الأمر .

وعلى ذكر السهرات المتواضعة . . فإن سهرات الشباب تبدأ عادة متواضعة، وتبدأ بريئة، ثم سرعان ما تتطور مع الوقت، لتكون غير متواضعة، وغير بريئة، لتزيد تكلفتها المالية، ويزيد تدميرها الخلقى والاجتماعى والاقتصادى جميعا، وخاصة عندما تدخل فى منظومتها المخدرات بأنواعها المختلفة، كما نقرأ كثيرا فى هذه الأيام .

أى أن الكتاب لا يحقق لك وفرا فى الإنفاق على وقت الفراغ لديك وحده، وإنما هو يقيك خطر الانزلاق فى مستنقع قضاء هذا الوقت فى سهرات تبدأ بريئة، ثم سرعان ما تتحول إلى سهرات ماجنة ، ثم مدمرة، تأتى على الأخضر واليابس فى حياتك كلها، سواء من الناحية المالية، أو من الناحية الشخصية، أو من الناحية الاجتماعية جميعا .

على أنه ليس ضروريا أن تشترى كل ما تريد قراءته من كتُب، فثمّة مكتبات عامة كثيرة، تفتح صدرها لك، لتقرأ فى داخلها، أو لتستعير منها

ما تريد قراءته من كتب، ولتقرأه بعد ذلك حيث تشاء، فى فترة زمنية معيَّنة، تحدّدها المكتبة .

والقيمة الحقيقية لمثل هذه المكتبات العامة، أنك تجد نفسَك تلتقى بمَن هم على شاكلتك، من الشباب الذين راحوا يهربون من عبث الحياة وصخَبها وضجيجها، إلى دفء الكتاب ومودَّته، ممن يمكن أن تأتنس بهم، وتقضى معهم جلسات طويلة، تستهلك فيها كل وقت فراغ يمكن أن يُتاح لك، دون أن تندم على أى وقت تقضيه معهم، فهو وقت يُضيف إليك ولا يُنقص منك، لأنك تقضيه مع صحبة طيبة واعدة، تُضيف إليك ولا تُنقص منك.

وميزة مثل هذه الصحبة تحديدا، أن أفرادَها مختلفو المشارب، مختلفو الهِوايات ، مختلفو المقاصِد من توجُّههم إلى المكتبة، ومن ثم فإنه كان يجمعهم حُبّ الكتاب، بنفس القدر الذى كان يفرّق بينهم هذا الحبّ لهذا الكتاب. ذلك أن الكتاب يكون تحت مظلة تخصُّص (طبيعة ـ كيمياء ـ قانون ـ لغة ـ أدب ـ هندسة ـ صيدلة ـ زراعة ـ تجارة . . إلخ)، وأن المتردّدين على أية مكتبة عامة أو خاصة، إنما يولون وجوههم ـ فورَ دخولهم هذه المكتبة ـ عادة ـ شطر هذا التخصُّص الضيق، وبالدرجة الأولى .

إلا أن هذا الكتاب ، رغم تخصُّصه، قد ألَّفه إنسانٌ له فكره، وله تَوجُّهه، وله رؤيته الخاصة، ومن ثم فإنه يكون لما يكتبه ـ رغم التخصُّص ـ طعمُه ومَذاقُه، وقُدرته ـ بالتالى ـ على تَجاوُز تخصُّصه، وعلى جعل هذا التخصُّص قادرا على أن يلتحم ـ على نحو ما ـ مع تخصُّصات أخرى . . قريبة منه ، أو بعيدة عنه .

إن انغلاق التخصُّصات العِلمية على ذواتها لم يَعُدْ سمة العصر فى

التخصُّص العلمى، وإن كان قد كان سمة التخصصات العلمية، فيما قبل التفجُّر العلمى والمعرفى الذى يشهده العالم اليوم .

ومن ثم تكون من ثمرات هذه الصحبة الطيبة فى المكتبات العامة، الولوج إلى العالمية المعرفية، وكسر حاجز التخصص الضيق، الذى يقف حجر عثرة فى طريق التقدم العلمى .

وهكذا تجد نفسك ـ مع هذا التجمُّع الطيب ـ قد خرجت من ضِيق التخصّص الضيق الذى دَخلتَ ـ من أجله ـ المكتبة أساسا، إلى أُفق العلم الأرحب. . أفق وحدة المعرِفة . . أُفُق لغة العلم ولغة الحياة . . فى عالَم اليوم .

ومع هذه الصحبة الطيّبة، ستجد نفسَك منساقا إلى أن تتملك كتابا، تقرؤه فى منزلك، وتتبادله مع أفراد هذه الصحبة، وتزهو أمامهم بما تختاره وتقتنيه من كُتب، كما ستجد نفسك تتبادل هذا الكتاب، مع هذه الصحبة، فتأخذ منهم وتعطيهم، لتزرع قيمة من القيم الجميلة التى يفتقدها أهل هذا الزمان .

إنك تجد نفسك تتعاون معهم على البرّ والتقوى، ولا تتعاون معهم على الإثم والعدوان، كما يتعاون الكثيرون من أقرانك .

وتذكر أن التعاوُن على البرّ والتقوى لا يقود إلا إلى الخير، لك ولأهل مجتمعك جميعا، وأن التعاوُن على الإثم والعدوان، لا يقود إلا إلى الشرّ ، وإلى الندَم، يوم لا ينفع الندم. . واقرأ معى صفحات الصحف اليومية، وصفحة الحوادث بها خاصة ، لتتأكّد مما أقول .

وقد تكون ممن وسّع الله عليهم فى الرزق، فيدفعك حبّ الكتاب إلى

شرائه، وإلى تزيين منزلك به، فيكون ذلك الطريق الأقل تكلفة لتزيين البيت، مقارنًا بتزيينه بالتحف النادرة على سبيل المثال .

وفرق كبير بين بيت يتزين بالتحف النادرة، فتكون هذه التحف مصدر خطر عليه ، ومُغرية لذوى النفوس الضعيفة بالسطو عليه، وما أكثر هؤلاء فى زماننا . . وبين بيت يتزين بالكتب، التى لا تُغرى أحَدا بمجرد الاقتراب منها .

وعندما تكبر، وتكون لك أسرة إن شاء الله، فسيشبّ أبناؤك ليجدوا أنفسهم فى حضانة الكتاب، وليجدوا أنفسهم - وتجدهم - يتفوقون فى دراستهم ، مما يوفر عليكم جميعا هموم الدروس الخصوصية ، التى تأتى على الأخضر واليابس فى البيت الذى يفتح أبوابه لهذه الدروس، كما نسمع ونقرأ.

إنك ستجد مالك الذى يضيع سدى على هذه الدروس، متوفرا لديك، وستجد الوقت الذى يضيع عليك وعليهم وعلى البيت كله، بسبب هذه الدروس ، متوفرا لديك أيضا، لترسم - بحريتك - برنامج حياتك اليومى معهم .

وهكذا ، تجد الكتاب لاينقذك من هموم كثيرة اليوم فقط ، ولكنه يظل ضمانة لك فى حاضرك ومستقبلك جميعا .

* * *

الفصل الثالث

ومـــاذا نقـــرأ ؟

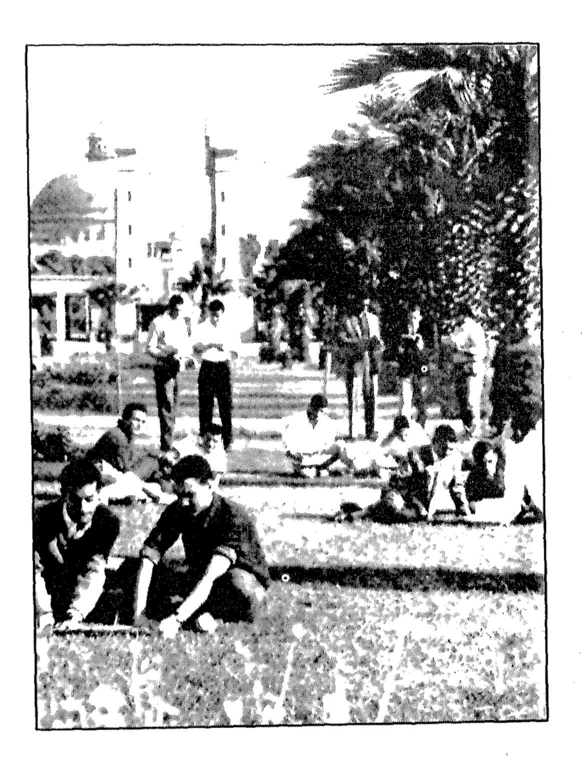
وماذا نقرأ ؟

وهو سؤال يصعُب على غيرك أن يجيب عليه . . فالذى يعرف طريقه إلى القراءة، وإلى الكتاب ، لابد أن يكون هناك دافع قوىّ وراء اختياره لهذا الطريق، فى وقت يختار فيه معظم شبابنا طرُقا أخرى، ويتباهون فيما بينهم كُلٌّ بالطريق الذى اختاره، مع أنها طُرقٌ تقود كلها إلى الندامة، كما نقرأ ونسمع ، فى هذا الزمان الذى ينَدُر أن نسمع فيه خيرا يُذكَر .

إن المهم هو أن تبدأ القراءة . . الحرة بطبيعة الحال، باحثا عن حل لمشكلة ما تشغلك، تنتقل منها إلى القراءة لحل مشكلة ثانية، وهكذا ، لتكون قراءتك ـ منذ البداية ـ قراءة هادفة ، لا قراءة عشوائية ، فالقراءة العشوائية تقود إلى الضيق والضجر، بقدر ما تقود القراءة الهادفة إلى الارتواء النفسى ، وهو ارتواء يقود إلى مزيد من القراءة ومزيد، ولا يقود أبدا إلى شىء من الصّدّ عن القراءة، أو العزوف عنها .

وعندما نفكر فيما نقرؤه، فإننا نجد نوعين من الكُتب، أولهما : الكُتُب ـ أو الكتابات ـ التى تخدم تخصّصا بعينه، كاللغة أو التاريخ أو الجغرافيا، أو الكيمياء أو الطبيعة أو الرياضيات، وهى الكتب ـ أو الكتابات ـ التى لا يفهمها إلا أهلُ هذا التخصُّص . . وثانيهما : الكتب ـ أو الكتابات ـ التى تُكتب لكل الناس، مهما كانت التخصصات التى يتخصصون فيها، ومن أمثلتها كتب الدين والكتابات فيه، والكتابات الأدبية، والكتابات السياسية .

وبعض هـذه الكُتب أو الكتابـات ، ذات الـطـابـع العـام، يكتبهـا



● فالحوارات مع هذه الصحبة، هى التى تقودك إلى حيث تقرأ، لتنمّى نفسك فى المجال الذى تجد نفسك تميل إليه

متخصّصون أيضا ، ولكنهم يكتبونها للناس جميعا ، مثلما يكتبونها للمتخصصين، ومن أمثلتها : الكتابات الدينية، والكتابات السياسية، والكتابات الاقتصادية، والكتابات الاجتماعية، والكتابات التاريخية . . مثلا .

ومع ذلك، فإن ثمة كتابات علمية خالصة، قد استطاع كاتبوها تبسيطها للناس، فى الكيمياء والبيولوجى والطب وعلم النفس، بحيث يفهمونها ، فتحولت مِثل هذه الكتابات، فى مثل هذه الموضوعات المعقدة ، إلى كتابات عامة .

ومثل هذه الكتابات العامة، يمكن أن تكون بداية طيبة لمن يرغبون من الشباب فى القراءة فى خارج إطار تخصصهم، حتى يستطيعوا استيعاب التخصص، والاقتراب منه شيئا فشيئا .

وتُفيد الصحبة الطيّبة التى تكوّنها فى المكتبة العامة فى هذا المجال، فالحوارات مع هذه الصحبة، هى التى تقودك إلى حيث تقرأ، لتنمّى نفسك فى المجال الذى تجد نفسك تميل إليه .

والمهم فى هذه التنمية الفكرية لك من خلال الكتاب، وعن طريق هذه الصحبة الطيبة، هو ألا تحاول القفز فوق ذاتك نفسها ، بمعنى ألا تنبهر بمعارف ومعلومات ومجالات قد تكون جذابة ، لا تميل أنت إليها ، وإنما تندفع إليها منبهرا بجاذبيتها، أو بجدّتها، أو بغَرابتها ، لأنك ستجد نفسك (تغرق) فى معارف ومعلومات، قد تُبعدك عن القراءة إبعادا، ولا تنسَ أبدا أنك لا تزال غَضاً طريّا ، وأنك لا تزال تبنى ذاتك، معرفيا وعلميا .

ومِن ثم يكون مفيدا ـ فى هذا المجال ـ أن تكون هذه الصحبة فى مثل سنّك، وألا تلجأ إلى مَن هم أكبر منك سنّا وخبرة ومَعِرفة، إلا عندما

يستشكل عليك أمر من الأمور .

إن باب العِلم والمعرفة لا يُولَج إلا برفق .

ولا تنس مدى الرفق الذى أُخِذْتَ به فى سنوات تعليمك الأولى ، عندما التحقت بالمدرسة الابتدائية ، أو قبل هذا الالتحاق ، ولو أنك أُخِذتَ فى هذه المرحلة المبكرة بشىء من القسوة ، كما يفعل بعض الجُهّال من الآباء والمدرسين مع صغارهم ، ما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم . إن الفرق بينك اليوم وبنيك فى هذه السنوات الأولى من تعليمك ، هو أنك اليوم تعرف ما تريد ، بينما كنتَ ـ يومها ـ لا تعرف ، ومن ثم كنت تُقاد قيادة إلى ما يخطَّط لك .

لقد كان الكبار هم الذين يقودونك فى البدايات ، ومن ثم فقد وصلت إلى ما وصلت إليه بحُسن قيادتهم لك ، وبقُدرتهم على كسب ثقتك ، وعلى فهمك ، وعلى التعامُل معك وفق إمكانياتك أنت . وأنت مطالب اليوم ـ وأنت تقود نفسك على طريق العلم والمعرفة ـ أن تتزوَّد بحكمتهم ، فتترفَّق بنفسك مثلما ترَفَّقُوا بك ، وأن تبذل الجهد الواجب رغم ذلك . . ويكفى أنك تبذل ما تبذل من جهد ، وأنت مقتنع بما تفعل ، لا يفرضه عليك أحد ، كما كان يحدث معك فى البدايات . . فى أوائل التحاقك بالمدرسة كما سبق .

واحمد الله أنك تعيش اليوم فى عصر المعلومات ، حيث المعلومات تنساب عليك من هنا وهناك ، وهى معلومات شتّى ، ومتنوعة ، ومستفزَّة أحيانا ، وهى ـ فى استفزازها ـ يجب أن تكون مثيرة لك ، وحافزة لك على أن تكتشف ذاتك ، وميولك ، واهتماماتك ، فتَروِى نفسك حيث وجدت نفسك تميل ، وحيث وجدت ظمأك .

وتُفيدك ـ فى هذا المجال ـ شبكة الإنترنت ، لو كنتَ قادرا على الاشتراك



● وتُفيدك شبكة الإنترنت، لو كنتَ قادرا على الاشتراك فيها ، على أن تكون حذِرا فى التعامُل معها.

فيها ، على أن تكون حذِرا فى التعامُل معها، فهى أداة طيبة لبناء الذات فعلا، ولكنها أداة سهلة جدا للهدم والتخريب، وهى كالصيدلية، فيها ما يشفى من الداء، وفيها ما يقتل أيضا .

المهم أن تبدأ فى التعامُل مع مصادر المعرفة، وفى مقدمتها الكتاب بطبيعة الحال ، من حيث أنت، ووفق ما ترسم لنفسك، وما تريد تحقيقه، فقد تبدأ من الشعر، ومن شاعر معيّن، أو من القصة الطويلة أو القصيرة، أو من المعارف العلمية، فى مجال من المجالات، كالبيولوجى أو الكيمياء، أو الطبيعة ، أو من الجغرافيا أو التاريخ . . إلى حيث تقودك قراءتك فى هذا الكتاب أو ذاك ، فى نفس المجال أو فى خارجه .

ومن المفيد كذلك أن يكون لك بطل تتمثله، وتقتفى أثَرَه، فى مجال من مجالات العلم أو الأدب أو الفنّ أو الرياضة، فوجود مثل هذا البطل سيوجه تفكيره إلى ما تقرأ، وإلى الكيفية التى تقرأ بها، وسيقودك إلى أن تنمّى نفسك وفق خطوط واضحة، تختصر لك طريق حياتك الذى تنشده وتتَمَنّاه . . ولكن لا تَنْسَ أبدا أنك لن تستطيع أن تكون إلا ذاتك .

ومن ثم يكون مُفيدا أن يكون لك بطل تتمثله، ولكن هذا البطل ذاته قد يكون مقتلك، إذا نسيت أنك لن تستطيع أن تكون إلا ذاتك، فكن حذرا فى تعامُلك مع هذا البطل الذى تنشده ، رغم حبّك الذى يجب أن يكون له .

إنك يمكن أن تكون هذا البطل وزيادة، إذا أنتَ سرتَ وفقَ خطواتك أنت، فلم تحاول القفز فوق الأيام والسنين، والإمكانات أيضا .

والعجيب أنك حينما تقترب من هذا البطل جسَديا، إذا أُتيح لك أن تقترب منه، فستجد أن الصورة الوردية التى رسمتَها له إنما هى صورة تَبعُد

كثيرا عن واقعه . إنك ستجده إنسانا عاديا تماما، مثلى ومثلك، بل إنك قد تجد لديك مواهب وملكات، تَفُوقُ ما لديه من هذه المواهب والملكات، إلا أنه قد سلك الطريق الذى أنصحك به، فسار وفق خطواته، ولم يحاول أن يقفز أبدا . . حتى واتته الفرصة ، فصار بطلا .

وكم كان القرآن الكريم واقعيًا كعادته، وهو يتحدث عن أنبياء الله ، عليهم أفضل الصلاة والسلام، وقد خلقهم الله سبحانه مزوّدين بمواهب وملكات، لم تُتح لغيرهم من بنى آدم، حيث يقول سبحانه فى سورة الفرقان (السورة رقم ٢٥ من المصحف الشريف) مثلا، موجها خطابه إلى الرسول ﷺ :

ـ ﴿ وما أرسلنا قبلكَ من المُرسَلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضَكم لبعضٍ فِتنة أتصبرون ، وكان رَبُّك بصيرا ﴾ (الآية ٢٠) .

إن عبقريتك ـ فى مرحلة الشباب تلك ـ لا تتبدَّى فى أن تقرأ فقط ، ولا فى أن تتجّمع مع من يقرءون، ولا فى أن تشارك فى مؤتمرات وفى ندوات ، ترى موضوعاتها تُشبِعك، ولكن هذه العبقرية تتبدّى ـ حقيقة ـ فى أن تكتشف ذاتك، وإمكاناتك ، وتختار ـ مما تقرأ ـ ما ينمّى قُدراتك أنت ، ويُشبع حاجاتك أنت ، ويحقّق طموحك أنت ، لا ما يقفز بكِ فوق ذاتك وقدراتك .

إن السير مع الكتاب وفق قُدراتك أنت ، سيصل بك ـ إن شاء الله ـ إلى ما تريد ، ولكن محاولتك القفز فوق هذه القدرات ، غير مأمون العواقب .

وأنا أعرف أن الأمر صعب فى هذا الزمان . . زمان التفجّر العلمى والمعرفى . . فى الإذاعة وفى التليفزيون، وفى الكُتب والدوريات المتخصصة،

وحتى فى الصحافة العادية، فهى ـ الأخرى ـ زاخرة زاخرة بالعلوم والمعارف . . مما يجعل مَن يحاول أن يكتشف ذاته وسط هذا الزحام الكبير، كمن يفتّش عن إبرة وسط كومة من القش، فهذا قَدَر شبابنا فى هذا الزمان، والمفروض أن النظام التعليمى يساعد ـ فى مراحله المختلفة ـ على بلورة شخصيات المنتظمين فيه . . فهذا هو ما يحدُث فى نظم التعليم فى البلاد المتقدمة بالفِعل، على اختلاف مذاهبها ورؤاها الفلسفية والتاريخية والأيديولوجية .

وإذا كان نظامنا التعليمى قد ظلمنا فى هذا الأمر ، فإن بإمكاننا نحن أن نُنصف أنفسنا، بعد انفلاتنا من هذا النظام ، بقسوته وجبروته، بأن نكتشف ذواتنا من خلال ما نقرأ، خاصة وأننا نقرأ ـ بعد التخرُّج ـ لنُرضى أنفسنا ، ونحقّق ذواتنا، لا من أجل (الشهادة) .

إن (الشهادة) ـ حتى فى نظم التعليم المتقدمة ـ لا تعنى تملُّك الخرّيج الحاصل عليها ناصية العلم والمعرفة ، بقدر ما تعنى قُدرة هذا الخريج على أن ينمو ويتقدّم ، فى المجال الذى تخصّص فيه، والذى حصل على الشهادة فى مجاله .

* * *

الفصل الرابع

وكيــف نقــرأ ؟

وكيف نقرأ ؟

لا تقِلّ الكيفية التى نقرأ بها أهمية عن المادة التى نقرؤها .

ذلك أن الكيفية التى تقرأ بها ما تقرأ، قد تكون عونا لك على مداومة القراءة ، كما أنها قد تكون عائقا لك ، يجعلك تملُّها وتهرب منها ، وخاصة فى هذا الزمان، الذى توفرت لنا فيه مُغرِيات كثيرة تباعد بيننا وبينها ، وفى مقدمتها التليفزيون ، الذى تتابع برامجه على أية صورة . . وأنت جالس ، أو وأنت مسترخ أو نائم . . وأنت منتبه أو دون انتباه .

إن كل ما حولك فى هذا الزمان قد صار ضدّ القراءة ، وما تتطلبه من تركيز، ومن راحة جسدية ونفسية جميعا .

ومع ذلك يظل الكتاب ـ والكلمة المطبوعة عموما ـ سيِّد الموقف ، فى هذا الزمان ، الذى تُزاحم الكتابَ ـ فيه ـ وسائلُ كثيرة ، لم تكن مُتاحة قبله ، وفى المقدمة منها التليفزيون . . تلك الآلة العجيبة ، التى دخلت حياتنا ، فأصبحت جُزءا منها ، وصارت له قنوات كثيرة ، ومتنوّعة ، فى بلادنا ، ومكّننا الدش ـ فى هذا الزمان ـ من أن نعبُر حدودنا إلى تليفزيونات العالم المحيط بنا . إنه جهاز يمكن أن تتعامل معه على مدى الأربع والعشرين ساعة ، ومِن ثمَّ صار مألوفا أن تراه يعمل ـ فى بيوت كثيرة ـ ليلا ونهارا ، بغضّ النظر عن متابعته .

وهذا الشيوع للجهاز ، هو الذى أفقده قيمته ، رغم قيمته الحقيقية ، ورغم التكلفة الكبيرة التى يتكلّفها إعداد برامجه . . ليُفسح المجال

لأدوات غيره، يدفع الإنسان (ثمن) التعامُل مع كل جزئية من جزئياتها، أو فقرة من فقراتها، كما هو الحال مع البريد الإلكترونى، أو مع شبكات الإنترنت مثلا.

وما دمنا قد وصلنا إلى شبكات الإنترنت، فإن فى التعامُل معها خيرا كثيرا، لأنها نافذة مفتوحة على العالم المحيط بنا، والذى تتدفق المعارف والمعلومات فيه بُسرعة مُذهلة ، تصعُب ملاحقتها إلا من خلالها. ولكن الشرّ الذى يأتى شبابنا من خلال هذه النافذة المفتوحة على العالم، شَرّ أكثر، حيث تستغلها جهات خارجية كثيرة ، وفى مقدمتها الصهيونية العالمية، لتحطيمنا نحن، من خلال التشكيك فى عقائدنا وتاريخنا وتراثنا كله . . فماذا يبقى لنا بعد أن نتشكّك فى ثَوابِتنا الثقافية تلك ؟ وما المستقبل الذى نتوقعه لأنفسنا ولأمتنا بدون هذه الثوابت ؟

ومن ثم يكون التعامُل مع هذه الشبكات، أمرا محفوفا بالمخاطر ، وخاصة بالنسبة لشبابنا الذين تخرجّوا حديثا ، والذين طبعهم النظام التعليمى الذى فُرض عليهم فرضا، ليدوسهم دوسا، ويحطّمهم تحطيما .

لقد تخرج شبابنا من هذا التعليم كافرين بالعلم والمعرفة ، مع أن كل ما درسوه فى مراحله المختلفة كان هو العلم والمعرفة . . ولكنه العلم الأحادى الرؤية، الذى لا يصلح التعامُل به مع البشر .

إنها نظرة القرون الوسطى إلى العلم، وقد ثار عليها العالم منذ قرون .

كان المفروض ـ فى هذه العصور ـ أن يصدّق الإنسان كل ما يسمعه ويقرؤه ، دون مناقشة ، ولكن وضع التعليم فى العصور الحديثة مختلف مختلف .

وإذا بدأت تعامُلك مع العلم والمعرفة بعد التخرّج ، من خلال هذه

الشبكات، فإننى أخشى عليك من الفتنة، ومن الانزلاق إلى حيث يخطَّط لك، ومن ثمّ فإننى أرى البدْء بالكتاب، الذى سيظل سيّد الموقف كما سبق .

وابدأ بالكتاب الذى تميل إليه، وترى نفسك فيه، وأَتْبِعْهُ بكتاب يدور حول نفس الموضوع ، ويحمل رؤية مختلفة أو مضادّة، وحاول أن تكون هناك قضية تتتَبَّعُها من خلال ما تقرأ، لتكوّن لنفسك شخصية مستقلة .

وأيا كان الكتاب الذى تقرؤه ، فاقرأ بحُبّ ، وباهتمام ، وبوعى ، وبتركيز أيضا .

ولن يتهيأ لك ذلك إلا إذا كنتَ تقرأ ما تقرؤه فى جو شاعرىّ هادىء مُريح، تركّز فيه فكرك فيما تقرؤه، لتستطيع متابعة أفكار الكتاب، ولتستطيع الانفعال بها ومزجها بنفسك، لتتخذ منها موقفا ما ، سالبا أو مُوجبا، على عكس ما تعوّدتَ أن تفعَله قبل تخرُّجك .

إن اتخاذك موقفا ما مما تقرؤه، هو بداية نمّوك على طريق العلم، وعلى طريق القراءة، وعلى طريق الحياة جميعا . . ولن تستطيع أن تتخذ مثل هذا الموقف إلا بالقراءة ، ومزيد من القراءة ، ولكنك لابد أن تدرّب نفسك على ذلك منذ البداية، ما دام النظام التعليمى الذى تخرّجت فيه لم يقم بتدريبك عليه .

وهنا تتحول قراءتك إلى قراءة هادفة، لها معنى، ولها قيمة ، تحسّها بنفسك، ويحسّها أولئك الذين يتعاملون معك، فى مجال العلم والمعرفة، وفى مجال العمل، وفى أى مجال غير هذا وذاك من مجالات الحياة .

إنهم يعوّدون أطفالهم فى البلاد المتقدمة على ألا يناموا إلا إذا هم قرءوا ، ومن ثم يشبّ أبناؤهم على حمل الكتاب معهم أينما ساروا ، يأتنسون به فى

الحديقة، وعلى محطة الأتوبيس، وفى داخل الأتوبيس . . يفعلون ذلك بتلقائية ، وبحبّ . . وإذا كان قَدَرنا نحن ـ فى بلاد العالَم الثالث ـ أننا رُبّينا على غير ذلك . . فلنغيّر ذلك بأيدينا ، لصالحنا نحن ، بمجرد تحرُّرنا من نظام التعليم المدرسى ، العنيف القاسى ، وتخرُّجنا فى هذا النظام .

ولن نستطيع أن نفعل ذلك مرة واحدة ، لأننا لابد أن ننسحب ـ أولا ـ وتدريجيا من حياتنا الثقافية التى ألِفْنَاها ، لنعيش هذه الحياة الجديدة . . مع الكتاب ، نستمتع به ، ثم نعايشه ، ثم نمزجه بحياتنا ، كما وضَّحت .

وكل ذلك يفرض عليك أن تُحسن اختيار ما تقرؤه أولا ، بحيث تُشبع حاجة عندك ، وبحيث تستمتع بما تقرؤه ، وبحيث تقرؤه فى جوّ مُريح ، حتى تستوعب .

ويُفيدكَ هنا تسجيل بعض الملاحظات على ما تقرؤه ، تحدّد موقِفَك منه ، كما يُفيدكَ مناقشة ما تسجّله من ملاحظات عن الكتاب ، مع من تأتنِس بهم من مُحبِّى القراءة ، وهم موجودون ، إلا أنهم فى حاجة إلى تشجيعك ، حاجتك أنت إلى تشجيعهم .

كما يفيدكَ أن تجعل قراءتك وظيفية منذ البداية ، بمعنى ألا تقرأ ـ حين تقرأ ـ لمجرد القراءة ، ولكن للاستفادة من هذا الذى تقرؤه ، وتوظيفه لخدمة حياتك أنت ، على نحو ما تراه أنت ، وبذلك تتحوّل هذه القراءة إلى لون من ألوان (الاستثمار) ـ إن صح التعبير ، تخطّط له ، وتدْرس أبعاده ، وتحدّد مسارَه ، وتحسب مُدخلاته ومُخرجاته جميعا ، وبذلك تتحوّل عملية القراءة تلك إلى شىء له معنى وقيمة ، أيا كان الهدف من الكتاب الذى تقرؤه تحديدا .

قد يكون هدفُك من القراءة مجرد الاستمتاع بما تقرأ ، حين تقرأ قصة ،

طويلة أو قصيرة ، أو حين تقرأ شعرا ، عاطفيا أو حماسيا . . وهو هدف له قيمته الحقيقة أيضا ، التى يُحتمل أن تكون قيمة عالية ، لأنك باستمتاعك بما تقرأ ، إنما تجدد طاقتك الحيوية عموما ، ونشاطك العقلى على وجه الخصوص . وفى حالة القراءة لمجرد الاستمتاع ، ستجد نفسك يمكن أن تقرأ (بنفَس هادىء) كما يقولون ، بلا تركيز يُذكر ، وبلا تقييد لحركتك ، وبلا قيود تُذكَر ، تتصل بالزمان والمكان جميعا .

وقد يكون هدفُك من القراءة تحصيل العلم والمعرِفة ، فى مجال ما من مجالات العلم والمعرفة ، وقد تكون لك أُلفة بهذا المجال ، وسابق معرفة به . . وهنا ستجد نفسك أكثر جدِّيَّة فيما تقرأ ، وأكثر التزاما وانضباطا ، وأكثر حزما مع نفسك ، وأكثر توتُّرا ، وأكثر بذلا للجهد ، وربطا لما تقرأ بسابق خبرتك . . ولكنك ستكون ـ ولا شك ـ أكثر استمتاعا بما تعمل ، وبما تبذل من جهد ، وستجد هذا الاستمتاع يزداد ، كلما اقتربت من تحقيق هدَفك ، الذى من أجله شرعتَ فى القراءة حول الموضوع .

وقد يكون هدفك من القراءة تحصيل العلم والمعرفة ، فى مجال جديد عليك تماما ، اخترت أن تَلِجَه لحاجة ما فى نفسك . . وهنا ستجد نفسك فى أقصى درجات التوتّر ، والقلق ، والضيق . . ولكنك ستكون فى قِمّة استمتاعك بما تعمل ، وخاصة كلما وجدت نفسك تقترب من تحقيق هدف من أهدافك .

وستجد نفسك هنا مضطرا إلى أن تخلو بنفسك لما تقرؤه ، ولأن تبقَى على مكتبك ساعات طويلة ، سعيدا بتقييد نفسك على هذا النحو ، مستمتعا بهذا التقييد ، طالما أحسستَ بأنك على الدرب تسير ، وبأنك تحقق هدفا من أهدافك تلو الآخر ، وبأن الألغاز التى تسعى إلى حلها تنحلّ أمامك ، لُغزا إثر لُغز .

إنها ثلاث حالات تبدو مختلفة، ولكنها ـ فى حقيقة أمرها ـ واحدة، والمتغيّر فيها هو أنت، وما تقرؤه، والسبَب الذى من أجله تقرأ، والحالة النفسية التى تقرأ فيها .

وفى كل الحالات، إذا أردت أن تكسب نفسك، وتنمِّيها عن طريق القراءة، فلا تنظر إلى هذه القراءة على أنها (شرّ) لابدّ منه ، وإلا خسرتَ كل شىء . . بل انظر إليها على أنها (مُتعة) أنت مُقبل عليها لا محالة، وهيىء لها جوّ المتعة ذاك، تستمتعْ بها، وتستفيد أيضا .

ولن يتهّيأ جوّ المتعة من القراءة، إلا إذا أنتَ دخلتَ مَجالها بِرفق، تفتّش عن حاجات تحققها لنفسك أنت ، وفق إمكاناتك وظروفك الخاصة بك .

ويوم تستطيع أن تحوِّل القراءة إلى عادة ، فستكون قد وُفقت ـ فى هذا الأمر ـ إلى الخير كُلّه . . لأنك ستكون قد ضبطت أمور حياتك كلها على طريق ، لا يقود السائر فيه إلا إلى الخير كله ، سواء فى ذلك خير الدنيا وخير الآخرة جميعا، إن شاء الله .



الفصل الخامس

عادة القراءة

عادة القراءة

شاء الله أن يخلق بنى آدم مختلفين ابتداء، حيث يقول سبحانه وتعالى فى سورة هود (السورة رقم ١١ من المصحف الشريف) :

ـ﴿ ولو شاء رَبُّكَ لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رَحِمَ ربك، ولذلك خلقهم . . ﴾ (الآيتان ١١٨ ، ١١٩).

وهو اختلاف قصدت إليه الإرادة الإلهية ابتداء، تمكينا للإنسان من أن يقوم بالدور الذى خُلق من أجله، وهو أن يكون خليفة لله فى الأرض ، على نحو ما نَفهم من مثل قوله سبحانه فى سورة البقرة (رقم ٢ من المصحف الشريف) :

ـ ﴿ وإذ قال ربُّكَ للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة، قالوا أتجعلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ، ونحن نسبِّحُ بحمدِك ونُقدِّسُ لك، قال إنى أعلم ما لا تَعلَمون . وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبِئُونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانكَ لا عِلمَ لنا إلا ما علَّمتَنا، إنكَ أنتَ العليمُ الحكِيم. قال يا آدم أنبئْهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال ألم أقل لكم إنى أعلَم غيبَ السموات والأرض، وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمُون﴾ (الآيات ٣٠ ـ ٣٣).

ولولا اختلاف الناس فيما بينهم، ما كانت هناك حضارة، ولا كان هناك (عمران)، على حد تعبير العلامة العربى، عبد الرحمن بن خلدون، لأن الحضارة ليست إلا إبداعا، لأناس مختلفين، يكمّل بعضُهم بعضا، فى عزف سيمفونية الحضارة تلك، متناغمة مع سيمفونية الحياة على وجه العموم.



● إن الطفولة هى فترة التشرُّب، فمع تشرُّب الطفل لِلبّن من ثدى أمه، يتشرب الطريقة التى يتعامل بها مع الآخر، بدءا من أمه.

لقد خلق الله الناس مختلفين فى مَواهِبهم وملكاتهم، مختلفين فى طباعهم، ومختلفين فى كل أنماط حياتهم فى حقيقة الأمر، وفى أساليب هذه الحياة .

إن الإنسان يأتى إلى الحياة صفحة بيضاء، لتقوم الحياة - والأحياء مِن حوله - بملء هذه الصفحة ، ليكون لشخصيته (نَمط) تُعْرَف به بين الناس، فيما يسلكه الإنسان من سلوك مع غيره من الناس، القريبين منه والبعيدين عنه جميعا، وفيما يَسلُكه من سلوك مع سائر الموجودات حوله، ومع عناصر الطبيعة المحيطة به .

وتكاد الملامح الرئيسية لشخصية الإنسان أن تكتمل فى البيت صغيرا، قبل أن يغادر هذا البيت - ولو جزئيا - فى سن الخامسة أو السادسة ، ليلتحق بالمدرسة، أو ليلتحق - قبلها - بدار من دور الحضانة ، أو روضة من رياض الأطفال ، وقد اكتسب فى أسرته ما اكتسبه فيها من سلوكيات، وَقِيَم واتجاهات جميعا .

إن الطفولة هى فترة التشرُّب، فمع تشرُّب الطفل لِلبَّن من ثدى أمه، يتشرب الطريقة التى يتعامل بها مع الآخر، بدءا من أمه، ومنتقلا إلى سائر الكبار فى الأسرة غير أمه، حتى يُتاح له أن يخرج إلى خارج البيت بطبيعة الحال .

فى إطار هذه العلاقات المحدودة داخل البيت، فى السنوات الثلاث أو الأربع الأولى، تتشكل شخصية الطفل .

إنها علاقات محدودة فِعلا، ولكنها عميقة عميقة، وذلك لأن صفحة الطفل تكون بيضاء بيضاء، مما يجعل أىَّ شىء ينطبع عليها مهما كان محدودا، ولذلك نجد أهل التحليل - والعلاج - النفسى يبدءون بالبحث عن

أمور حدثت فى هذه السنوات الأولى ، تبدو لنا نحن بسيطة ، ولكنها تكون عندهم ذات معنى ، لفهم حالات عُصابية تُعرَض عليهم ليعالجوها ، لأفراد فى سنّ الطفولة المتأخرة ، أو المراهقة ، أو الشباب ، أو حتى الشيخوخة .

إن حياة الطفل تبدأ ـ فى هذه المرحلة المبكرة من عمر الإنسان ـ عشوائية تماما ، سواء فى فعِل الطفل وفى ردّ فِعله جميعا ، ثم سرعان ما تتبلور شيئا فشيئا ، فكلما كبر الطفل ، زاد نُضجه ، وزاد فهمه للحياة مِن حوله ، وزاد اكتمال ملامح شخصيته ، على نحو ما قال الشاعر العربى :

وينشأ ناشىء الفِتيان منا　　　على مـا كـان عوَّدَهُ أبوه

إن مَقُولة الشاعر تلك ، مَقُولة يقول بها علم النفس الحديث ، بعد دراسات ودراسات لهذه المسألة ، التى تشغل الآباء والمربّين جميعا .

ومن هذه العادات ، عادة القراءة ، التى نجد شبابنَا يشبُّون وكأنما بينهم وبينها خصام ، بسبَب موقف معظم الآباء منها فى البيت ، مستعيضين عنها بالتليفزيون وغيره من وسائل (قتل الوقت) قتلا ، أو بأى لون من ألوان اللعب التى تقتل الوقت أيضا . . ثم يذهب الطفل المسكين إلى المدرسة ، وقد تشبَّع (بقتل الوقت)، ليجد المدرسة تساعده على ذلك كذلك ، أو تساير الطفل ـ والأسرة ـ فى هذا الاتجاه ، بدلا من أن تُقَوِّمه أو تعدّله .

ومَن يقول إن مدرسة فى القرن الحادى والعشرين ـ كمدرستنا المصرية ـ تكتفى بكتاب لكل مقرّر؟ وحتى هذا الكتاب المدرسى المقرّر، لا يطيقه الطفل المتعلم ولا ذووه ، ولا يطيقه المدرّس أو المدرّسة ، فيستعيضون عنه (بكتاب خارجىّ)، لا يعدو أن يكون (تلخيصا) للموجود فى الكتاب المقرّر، ثم يتم تلخيص التلخيص ، ليقبل عليه الطلاب والمدرسون وأولياء الأمور إقبالا ، مع قُرب امتحان آخر العام .

وهذه العادة التى يشبّ أطفالنا عليها فى الأسرة مع القراءة ، ثم تدعَمُها المدرسة و الجامعة ، يشبّ الأطفال فى البلاد المتقدمة على عادة مضادّة لها تماما . . إنهم يفتحون عيونهم وقلوبهم على الكتاب منذ البداية ، فهم يرون هذا الكتاب موجودا فى أيدى الوالدين ، يقضون معظم وقت فراغهم معه ، ويتناقشون حول ما يقرءونه فيه . إنهم يفتحون عيونهم على الكتاب كائنا حيّا يعيش بينهم فى الأسرة ، ويوجّه حركة الحياة فيها ، ومن ثم يكون منطقيا أن يقلّدوا الكبار فيما يفعَلون ، فيقرءوا مثلهم فى كتب الأطفال ـ التى تهتم بها مجتمعات الغرب اهتماما كبيرا ـ التى يقرءونها ، ويناقشوهم فيما يقرءون ، فيَسعَد الكبار بهذه المناقشات ، وتكون مصدر مُتعة لهم بطبيعة الحال .

وينتقل الطفل عندهم إلى المدرسة ليجدها تسير مسيرة البيت ، فى تكافُلها مع الكتاب ، فليس هناك كتاب مُقَـرَّر ، بالمعنى الموجود به هذا الكتاب عندنا ، وإنما هناك محتويات مقرّر ، يمكن أن يضمّها أكثر من كتاب ، وهذه الكتب كلها موجودة فى المكتبة ، التى يعمل بها عدد من أمناء المكتبات ، لا يُنظَر إليهم على أنهم مجرد (مخزنجية) ، وإنما على أنهم مربُّون أيضا ، فهم يقومون بمساعدة المتردّدين عليها من المتعلمين وتوجيههم أيضا ، مما يجعل المكتبة هناك بيئة جاذبة ـ بل حاضنة ـ للمتعلمين ، بدءا من أول التحاق المتعلم بالمدرسة .

وليست القضية قضية بيت ومدرسة فقط ، وإنما يُضاف إليهما حركة الحياة فى المجتمع كلها ، فهى تستجيب لهذه الحياة ، فنجد مؤلفين لكتُب الأطفال ، ودور نشر تنشرها ، ومكتبات تبيعها ، بحيث تكون ملائمة للأطفال ، وجاذبة لهم ، سـواء فى مادّتها العلمية ، وفى إخراجهـا جميعـا .

وإذا كانت مشكلتنا ـ نحن الشباب ـ أننا نشأنا ـ فى البيت وفى المدرسة

جميعا ـ فى إطار ثقافة هى على النقيض مما رأيناه يحدُث فى هذه البلاد المتقدمة، فإن ذلك يكون حافزًا لنا ـ فى الواقع ـ على أن (نربّى) أنفُسَنا على ذلك بعد تخرُّجنا كما سبق ، فلا تُعتبر شهادة التخرج (شهادة وفاة) بالنسبة للتعلُّم ، وإنما تُعتبر (شهادة ميلاد) حقيقى لهذا التعلُّم .

* * *

الفصل السادس

القراءة فى غير الكِتَاب

القراءة فى غير الكِتَاب

لم تعُد المعرِفة ـ منذ بدايات العقد الأخير من القرن الماضى ـ العشرين ـ تتدفّق على مجتمعنا من خلال الكتاب التقليدى وحدّه ، ولكنها صارت تتدفق عليه من خلال مصادر شَتَّى ، وفّرتها الثورة التكنولوجية وثورة الاتصالات المعاصرة، التى صار الفكر قادرا ـ بها ـ على أن يخترق سماء أى بلد ، وصارت (الرقابة) التى كانت تفرِضها الدول على المطبوعات التى تصل إلى حدودها ، أثرا من آثار الماضى البعيد .

لقد صرنا نَسمَع عن الكتاب الإلكترونى ، وعن شبكات المعلومات والاتصالات بأنواعها المختلفة، وأهمّها شبكة الإنترنت ، حيث نجد جهازا واحدا صغير الحجم، يستطيع أن يوصّل من أراد بالمعرفة العالمية، بخيرها وشرّها . . وصار الكتاب المطبوع ـ فى ظل الثورة التكنولوجية المعاصرة ـ عِبئا ، ليس على ميزانية الأسرة فى بلادنا وحدها فقط كما سبق ، بل عبئا على البيت ذاته .

إن التكنولوجيا المعاصرة صارت تمكّن المتعامل معها من أن يتعامل مع هذا الكمّ الهائل من الكُتب، فى جهاز واحد صغير، يستعمله ـ بسهولة ويُسر ـ متى تشاء .

وعندما نتحدث عن القراءة وعن الكتاب . . فإننا لا نستطيع أن نُهمِل هذه التكنولوجيات الحديثة، أو نتغافلها، وإلا كنا كمن يدعو إلى ركوب الدوابّ، فى وقت تشق فيه السيارات الطرُق، وتشقّ فيه الطائرات السموات .

إن العالم يجرى بسُرعة مذهلة فى هذا الزمان، وخاصة فى مجال الاتصالات ومجال المعلومات، ومن لا يستطيع أن يُسرع مع المسرعين ، فإنه لابد أن يتخلف عن ركب الحياة، ولابد أن ينقرض مع الأيام ، خاصّة وأننا ـ نحن العرب ـ صِرنا نعيش فى محيط ، زرع الغربُ الحاقد علينا من قديم فى قلبه سرَطانا ، بدأ يكشف عن أنيابه ، ويعلن عن عزمه ابتلاع المنطقة بأسرها . . اسمه دولة إسرائيل .

وهكذا تكون الدعوة إلى الاكتفاء بالكتاب، وترك هذه التكنولوجيات الحديثة . . دعوة إلى الانتحار .

إلا أننا ـ فى هذا المجال ـ لازلنا (مُستهلكين) لمنجَزات هذه الثورة، ولم نصل بعد إلى دور (المُنتجين)فيها . . ومعنى ذلك أن الإفراط فى استخدامها سيتحوّل إلى (استنزاف) لمواردنا وطاقاتنا . . المحدودة .

يُضاف إلى ذلك أن بلاد الغرب ـ المنتِجة لها ـ عندما اقتحمتها ، إنما اقتحمتها من مدخل الكتاب المطبوع، ولم تقفز إليها من فوق هذا الكتاب، كما يحاول شبابنا أن يفعل . . فتكون النتيجة أن يتحول استخدامهم لها إلى استنزاف للأموال، وتدمير للعقول والنفوس جميعا .

إن شباب الغرب يستخدم هذه الـمُنجَزات التكنولوجية، للوصول إلى العلم والمعرفة، بينما يستخدمها شبابنا ـ إن استخدموها ـ لمشاهدة مناظر الجنس، ومتابعة (الألعاب) الإليكترونية . إنهم يستخدمونها لبناء أنفسهم، ولتحقيق التقدّم الشخصى والمجتمعى جميعا، بينما شبابُنا يستخدمونها للانتحار الجماعى ، وهم لا يعلمون .

وهنا يأتى دور المدرسة منذ البداية ، لتقوم بدورها المنُوط بها ، فى إدخال المكتبة فى منظومة عمَلها، على أن يكون إدخالا حقيقيا، لا مجرّد إدخال

(على الورق)، من باب المباهاة والمفاخرة والادعاء بمسايرة روح العصر وتطوير التعليم . . كما نقرأ كثيرا فى صحافتنا فى هذه الأيام . . ثم لتقوم ـ بعد ذلك ـ بإدخال هذه الإلكترونيات فى المنظومة ، بحذَر ، وبجدّية ، وبمتابعة تامة ، وإشراف واع ودقيق . . يتطلب ـ ولا شك ـ إعداد (كوادر) إعدادا تربويا جيدا ، كما يتطلب أموالا ضخمة ، سواء لإعداد (الكوادر) ومكافأتها ، ولشراء المعدّات .

المشكلة أنّ الوقت يجرى ، والأيام تمرّ ، والتطوّرات فى هذه المعدّات متلاحقة ، ولا تتوقف ، ومن ثم فإننى أشك فى أن إمكانياتنا ـ فى مصر ـ تسمح بذلك فى الوقت الراهن ، أو فى المستقبل المنظور . . مما يعود بنا إلى الكتاب المطبوع مرة ثانية ، لتزيد كفّتُه رُجحانا ، ولو إلى حين ، وهو خير تقودنا المقادير إليه ، لأن التعامُل مع هذه التكنولوجيات ، دون المرور بمرحلة الكتاب المطبوع ، أمر بالغ الخطورة ، كما سبق . . وقد بدأت الآثار السلبية له تظهر فى بعض مناطق القاهرة ، التى تضمّ أناسا يستطيعون أن يوفّروا هذه التكنولوجيات لأبنائهم ، وهم كثيرون فى مصر . . كما بدأت تظهر فى بعض أحياء عواصم المحافظات المصرية كذلك .

إن الأغنياء والقادرين عندنا يزيد عددهم بشكل لافت للنظر ، وهذا شىء طيب ، إلا أن الشىءَ غيرَ الطيّب ، هو الزيادة بشكل أكثر لَفتا للنظر للمُعدمين . . مما يهدّد السلام الاجتماعى فى مصر تهديدا .

وهكذا يكون التعامُل مع هذه التكنولوجيات المعاصرة أمرا ضروريا فى مسألة القراءة تلك ، لأنها مصادر معلومات لا يمكن الاستغناء عنها فى عالم اليوم ، إلا أن هذا التعامُل يجب أن يكون بحذَر . وإذا كان شبابنا ـ الذين يتجه هذا الكلام إليهم أساسا ـ لم يتعاملوا معها من قبل ، فإنها تكون فرصة

لهم للحصول على خبرة هذا التعامُل معها، وعلى الاستمتاع بهذه الخِبرة، وعلى الاستمتاع بالتعامُل مع لغة العصر ، من أوسع أبوابها .

ولابد أن نقرّ بأن اكتساب خبرة التعامُل مع هذه التكنولوجيات أمر مكلّف فعلا، إلا أنه أكثر إمتاعا بالفِعل، إضافة إلى أن حجم هذه التكلفة إنما يتوقف على ما تريد أن تتعلَّمه فيها ، وعلى عدد البرامج التى تريد أن تتعلَّمها .

وما دامت قضَّيتنا هى قضية القراءة، لا قضية التعامُل مع هذه الأجهزة على وجه العموم ، فإن الأمر يكون بسيطا غاية البساطة ، وأقلّ تكلفة، إذ لا يعدو الأمر معرفة آليات التعامُل مع هذه الأجهزة، وهى معرفة لا تتطلّب جُهدا كبيرا، كما أنها لا تحتاج إلى متخصّص أو خبير لتعليمها، فالمسألة لا تتطلب أكثر من الوقوف على كيفية التعامُل مع الجهاز وتشغيله، وهو أمر بسيط غاية البساطة ، يمكن أن يعلّمه الصديق لصديقه، فى دقائق معدودة . . وهذا هو ما يحُدث بالفعل فى بعض المكتبات العامة، التى تيسّـر خِدمة التعامُل مع شبكات الإنترنت ، مقابل رسوم، أو بدون مقابل ، حيث يقوم أمين المكتبة، أو المسئول عن توفير الخِدمة، بتعليم (الزبون) كيفية الحصول على ما يريد الحصول عليه، ثم يتركه يفعل ذلك بنفسه .

إن التكلفة فى التعامُل مع هذه الأجهزة تكون قليلة جدا إذا أَرَدْتَ قراءتها، أو استخراج شىء منها، ولكن هذه التكلفة تزيد إذا أردت إدخال شىء (معلومات) إليها، كما تزيد زيادة أكبر إذا أردت (تشغيلها) معك، بإدخال معلومات إليها لتحليلها .

وحتى فى مسألة التحليل تلك . . يتوقف أمر التكلفة على عدد البرامج التى تودُّ استخدامها فى هذا التحليل .

وهكذا سيكون تَعامُلك مع هذه الأجهزة للقراءة فيها أمرا بسيطا ، وغير مكلّف عادة ، إذا استطعت أن (تجد) الجهاز ، سواء بشرائه ، أو بالقراءة فيه عند صديق، أو فى مكتبة عامة أو خاصة . . وقد تُغريك بَساطة التعامُل مع الجهاز، بشرائه، واقتنائه، بعد أن صار ممكنا شراؤه الآن . . بالتقسيط المريح، بعد تزايد المعروض منه فى الأسواق، وزيادة عدد الشركات المنتِجة له ، والتى صار ينافس بعضها بعضًا ، لصالح المستهلك بطبيعة الحال .

ورغم أن الجهاز يبدو لك غالى الثمَن، مقارنا بالكتاب مثلا، فإنى أراه أقل تكلفة منه . ذلك أنك تقرأ الكتاب مرة أو مرتين أو أكثر، ثم تُودِعه مكتبتَك الخاصّة لتُباهى به، ثم ليتحوّل إلى عبء على البيت كله. . إلا إذا كان هذا الكتاب من كتُب المراجع الأساسية لك ، وكنتَ أنت من المشتغلين بالبحث العلمى، وكنت فى حاجة إلى الرجوع إليه ، كلما بحثتَ فى موضوع له صلة به . أما بالنسبة لهذا الجهاز ، الذى تراه يشغل فى بيتك مساحة لا تزيد عما يشغله جهاز تُليفزيون عادى من مساحة ، فإنك يمكن أن تخزن فيه عشرات الكتُب ، دون أن يزيد حجمُه ، لترجع إلى ما تريد الرجوع إليه من كتب أو معلومات أو بيانات فيه . . بكل سهولة ويُسر .

وإذا تعبتَ من القراءة، وأردت أن تروّح عن نفسك، فستجد نفسك تهرب من الكتاب المطبوع هروبا ، ولكنك إذا لجأت إلى هذا الجهاز ، فستجده يوفر لك وسائل الترويح أيضا ، بما فى ذلك الألعاب الإلكترونية المختلفة ، التى يلهو بها الأطفال والكبار جميعا .

إنك ستجده صديقا لك، إذا أردتَ الجدّ وتحصيل العلم والمعرفة، وصديقا لك ـ ورفيقا ـ إذا أردت اللهو واللعب ، وستقضى معه الوقت باستمتاع ، وبتكلفة محدودة، مقارنة بتكلفة سهرة من السهرات العابثة ، التى يغرق فيها شبابنا فى هذا الزمان .

لقد أثبتت تجارب مَن تعاملوا مع أجهزة المعلومات تلك ، وفى مقدمتها الكمبيوتر، أنهم كانوا يخشون التعامُل معها فى البداية ، ثم صاروا (مُدمنين) لها بعد هذا التعامُل ، مما يؤثر سلبا على عيونهم وأعصابهم جميعا ، ومما يدعونا ـ فى نهاية الحديث عنها ـ إلى أن ندعوك إلى ألا تُفرط فى استخدامها ، رغم أهميتها . . من أجل صحَّتك أنت .

إن مشكلتها أنك مضطرّ إلى التعامُل معها من قُرب ، لتقرأ أو لتلعَب ، بينما أنت تتعامل مع جهاز التليفزيون العادى من بُعد . . ومع ذلك فهم يحذِّرون الأطفال مثلا من طول التعامُل معه .

ولا تنس أبدا ـ وأنت تتعامل مع هذه الأجهزة الإلكترونية ـ أنها تصيب الذى يُفرط فى استخدامها بالاكتئاب والقلق والضغط العصبى والإرهاق . . بعد فترة قصيرة . . إضافة إلى ضعف البصر بطبيعة الحال .

* * *

الفصل السابع

المُنَاخ المجتمعىّ والقراءة

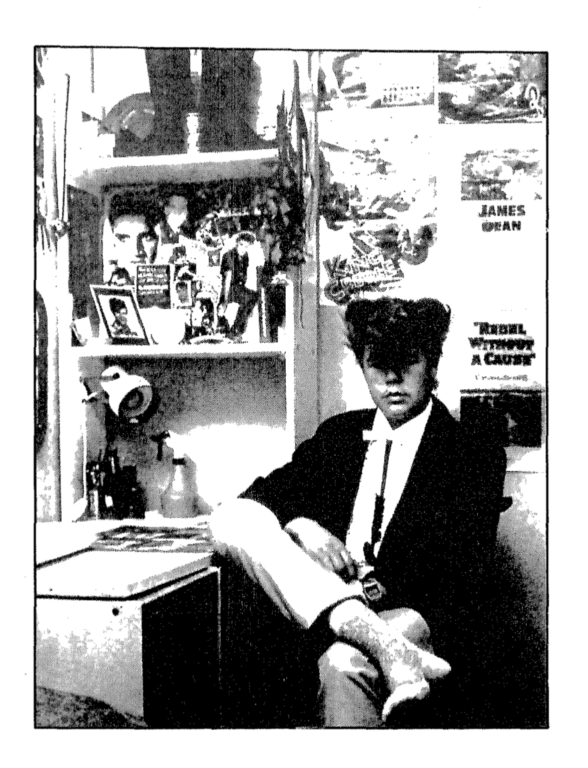
المناخ المجتمعىّ والقراءة

صحيحٌ أن مسألة القراءة مسألة فردية بالدرجة الأُولى، بوصفها مسألة يحبها الفرد ويعوّد نفسه عليها . . أو مسألة ينفِر منها الفرد ، ولا تُطيقها نفسه ، ولا تتحمّلها أعصابه ، ولا يُطيق الصبر عليها ثوانى معدودات .

إلا أن هذا الفرد لا يعيش بمفرده ، وإنما هو يعيش فى إطار جماعة إنسانية ، تصبّ فى قلبه وعقله ، وضميره ووجدانه، منذ قذف به رَحِمُ أمه إلى الحياة . . تصبّ ما تريده أن يكون عليه ، وهو مضطرّ ـ منذ البداية ـ إلى أن (يساير) مَن حوله، ليحظَى برضاهم ، وليَهنأً بهذا الرضا، الذى لا تقل حاجته إليه، عن حاجته إلى الطعام والشراب والملبس وغيرها من ضروريات الحياة، ليستمر فى هذه الحياة، التى يحرص كل إنسان عليها .

إن الإنسان ـ منذ يوم مولِده ـ يحبّ الحياة ، بقدر ما يكرَه الموت ويخشاه، ومن ثم فهو الذى يسعى إلى الجماعة منذ البداية، ليكسب رضاها، باعتبارها الطريق الوحيد لتأمين أسباب هذه الحياة، سواء فى ذلك الأسباب المادية والفسيولوجية منذ بدايات الحياة، والأسباب النفسية والاجتماعية التى تُضاف إليها، كلما كبر الإنسان فى السنّ .

ولو أننا بحثنا فى أمر أىّ تجمّع بشرى ينشأ الطفل ـ منذ البداية ـ فى ظِلّه ، لوجدناه ـ باختصار ـ لا يعدو أن يكون مجموعة من البشر ، تعيش على أرض بعينها ، مما يخلق مُناخا معيّنا ، نجده يحرّك الحياة فى المجتمع ، مثلما نجده



● إن هذا النظام العالمى الجديد ليس أكثر من مناخ أمريكى خالص ، راح يحاول فرضَ نفسه على شعوب العالَم ، بقوّة السلاح، أو بالتهديد بها

يترك بصمته على كل فرد من أفراده ، صغيرهم وكبيرهم على حدّ سواء .

وهذا المناخ الذى يُفرزه أىّ تجمُّع بشرى، نراه على مستوى الأسرة، مثلما نراه على مستوى القرية، وعلى مستوى المدينة، وعلى مستوى المجتمع الكبير، تحت مظلة الدولة القومية ، فترى نفسك فى مدينة من مدن الساحل الشمالى فى مصر مثلا ، فى مناخ مختلف تماما عن المناخ الذى تستشعره فى قرية من قرى الصعيد ، ومختلف ـ كذلك ـ عن المناخ الذى تستشعره فى قرية من قرى الدلتا ، أو فى تجمع من تجمعات البدو فى صحراء سيناء ، أو فى الصحراء الغربية .

بل إنك لتجد هذا المناخ يختلف فى داخل الحىّ الواحد فى المدينة ، أو فى داخل القرية الواحدة، مثلما يختلف من بيت إلى البيت المجاور له ، ومن شقّة إلى الشقّة المجاورة لها . . وإن كانت هذه الاختلافات اختلافات فى حدود الإطار العام للمجتمع الكبير بطبيعة الحال .

ونتيجة لثورة الاتصالات التى يعيشها عالمنَا المعاصر ، أصبح انعزال أى تجمّع من هذه التجمعات البشرية ضربا من ضروب المستحيل ، فسماء أى تجمع من هذه التجمعات أصبحت مفتوحة تماما، أمام أىّ بثّ يأتى من خارج الحدود .

لقد صار مُناخ هذا النظام العالمى الجديد يفرض نفسه على الحياة ، فى كل البلاد ، وفى كل التجمُّعات . . برضا هذه التجمُّعات أو بغير رضاها ، وصارت كثير من المجتمعات المعاصرة ـ حتى فى البلاد المتقدمة ـ تُحسّ بخطره على ثقافاتها المحلّية .

إن هذا النظام العالمى الجديد ليس أكثر من مناخ أمريكى خالص ، راح يحاول فرضَ نفسه على شعوب العالَم ، بقوّة السلاح، أو بالتهديد بها ، تصريحا أو تلميحا ، ومن ثم راحت شعوب أوروبا تنفِر منه ، وتتمرّد عليه،

وتُعلن هذا التمرد ، كلما لاحت فُرصَة لهذا الإعلان .

ويُلقِى هذا النظام العالمى الجديد بظلّه الثقيل على شعوب العالم الثالث بصور شتَّى ، تساعده فى ذلك ـ بطبيعة الحال ـ ثورة الاتصالات ، فراح الهامبورجر الأمريكى يحاول اقتلاع الفول المصرى ، وراحت اللغة الإنجليزية ـ الأمريكية ، تحاول اقتلاع اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ، التى طالما حمتها مصر ، وحماها أزهرُها الشريف .

* * *

الفصل الثامن

قراءة .. وقراءة

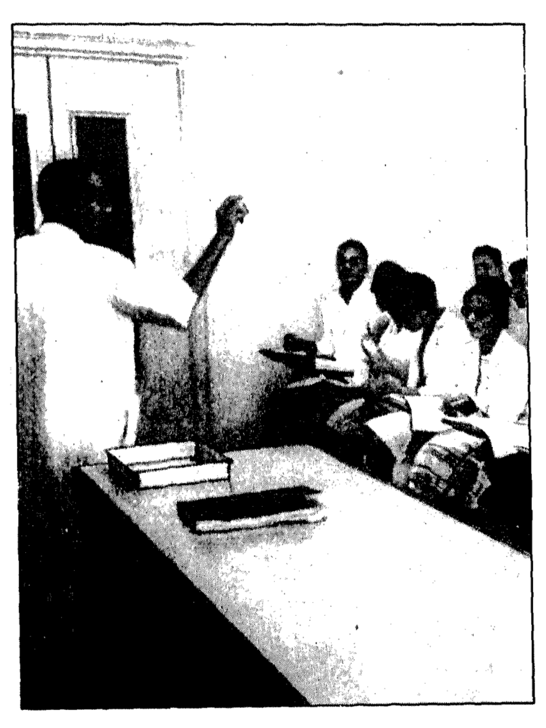
قراءة .. وقراءة

علَّمونا فى المدرسة ـ منذ البداية ـ أن نقرأ حروفا وكلمات ، بِغَضّ النظَر عن المعانى التى تعبّر هذه الكلمات عنها ، فقد كان المهمّ لدى النظام التعليمى الذى يحدِّد آليات العمل فى المدارس، هو أن ينطق الأطفال الكلمات المكتوبة، بغضّ النظر عن فهم ما ينطقونه . . وكان هذا النظام التعليمى يرسل بمفتِّشيه، الذين يُسَمَّون الآن موجّهين ، للتأكُّد من تحقيق هذه السياسة العليا للتعليم، الذى هو ـ هنا ـ تعليم التعامُل مع الكلمة المطبوعة .

ولو أن النظام التعليمى أراد من ذلك منذ البداية أن يعلم أبناءنا الإتقان ـ إتقان القراءة ـ وإتقان النطق ، بوصف ذلك مرحلة من مراحل التعليم ـ لكان ذلك شيئا طيِّبًا . . إلا أننا لا نرى إتقانا فيما نسمعه ، حينما ينطق هؤلاء الأطفال .

ولو أن النظام التعليمى اعتبرَ هذا الإتقان وتعليمه مجرَّد مَرحلة على الطريق، لوجدناه ينتقل منها إلى المرحلة التالية لها . . إلا أننا نجد النظام يثبُت عليها ، حتى إن المتعلمين يتخرّجون عندنا من الجامعة، وكأنهم ببغاوات عجماوات . . فهم يقرءون دون وعى .

إن النظام يثبّتنا على مرحلة الإتقان والتجويد تلك، وكأنها هدف الأهداف ، من بدايات تعامُل الطفل معه، وهو غضّ طرىّ ، وحتى يتخرّج من الجامعة ، ثم نُقابَل بالكارثة فى سوق العمل ، حينما ينتقل خريجو النظام



● وإذا كان باب الأمل مفتوحا أمام العُملة الجيّدة من الخريجين، الذين يقرءون ، ويستمرّون فى القراءة بعد التخرُّج ، فإن معنى ذلك أن الخير لا يزال موجودا فى المجتمع

إلى سوق العمل تلك . . كما نُقابَل بها نحن ـ فى الجامعة ـ كذلك، عندما يلتحق بعض هؤلاء الخريجين بالدراسات العليا ، للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه، فنفاجأ بأننا مضطرون إلى تعليمهم : كيف يكتبون جملة مُفيدة ؟ وكيف يفهَمون الكلام المطبوع كما يجب أن يُفَهم؟

ورغم هذا التعميم الكاسح لخرّيجى نظامنا التعليمى، فإن لكل قاعدة شَواذّ ، فمِن بين هؤلاء الخرّيجين فعلا مَن استطاع أن يستفيد من سنوات دراسته فى الجامعة، ومما كانت تقدمه الجامعة للطلاب فى سنوات دراستهم بها، من خدمات اجتماعية ومكتبية ومعمَلية. . وإلى هؤلاء الذين تحدَّوا المناخ القاهر المضادّ للعلم، تكون مثل هذه الكتابة عادة، لأنهم هم الذين يمكن أن يقرءوا هذا الذى أكتبه. أما القطاع الأكبر من هؤلاء الخريجين ، فإنهم لن يقرءوه ولن يقرءوا غيره . . وأذكّرهم فقط بأن سوق العمل إنما تفتح صدرها لأمثالهم فقط ، فى نفس الوقت الذى تغلقه فى وجوه غيرهم من الخاملين من هؤلاء الخريجين ، الذى هم الكثرة الكاثرة للأسف الشديد .

وإذا كان باب الأمل مفتوحا أمام العُملة الجيّدة من الخريجين، الذين يقرءون ، ويستمرّون فى القراءة بعد التخرُّج ، فإن معنى ذلك أن الخير لا يزال موجودا فى المجتمع، وأن المطلوب هو تحريك هذا الخير وتفعيله ، حتى يكون قادرا على تحريك الحياة إلى الأفضل .

ويقسّم أهل التخصُّص فى مجال القراءة . . يقسّمون القراءة عموما إلى أنواع، لعل أكثرها شُهرة وشُيوعا ، هو تقسيم هذه القراءة إلى قراءة صامتة ، وقراءة جهرية .

والقراءة الصامتة هى تلك القراءة التى يقرؤها القارىء بعينيه، وبغير صوت يمكن أن يُسمَع، أما القراءة الجهرية ، فهى تلك القراءة التى يُسمِع

بها القارىء غيره، مثلما يُسمِعُ بها نفسَه بطبيعة الحال . . فأى القراءتين أكثر إفادة للقارىء ؟

إنك عندما تريد أن تُسمِع أحدا ما شيئا تقرؤه، لأىّ سبَب من الأسباب، فإنك لابد أن تقرأ قراءة جهرية، ولو كنتَ متعوِّدا على القراءة الصامتة . . وعندما تريد أن تقرأ شيئا فيه خصوصية، لا تريد أن تُطلع غيرك عليه، فإنك تقرأ قراءة صامتة، حتى ولو كنتَ وسط جمع كبير من الناس .

فالقضية ـ على هذا الأساس ـ ليست قراءة صامتة أو قراءة جهرية، وإنما القضية هى قضية الموضوع الذى تقرؤه، وهدفك من قراءته. بل إنك قد تكون تقرأ قراءة صامتة، فإذا بفقرة واحدة تستوقفك ، فتُعيد قراءتها قراءة جهرية، مرة ومرة، حتى تُدخل الفِكرة التى تتضمّنها هذه الفقرة إلى عقلك، وتستطيع أن تُدخلها ضمن منظومة ما تقرؤه .

إن القضية تتحوَّل ـ إذَن ـ إلى استيعاب لما تقرؤه، وقد يتمّ هذا الاستيعاب فى لحظة من اللحظات، إذا أنت قرأت قراءة صامتة، وقد تراه لا يتمّ لك إلا إذا أنتَ قرأت قراءة جهرية .

وما دمنا قد وصلنا إلى الاستيعاب، فإن ثمة تقسيما آخر للقراءة يمكن طرحه هنا ، يخدم موضوعنا الذى نحن بصدَده ، وهو تقسيمها إلى قراءة سريعة ، وقراءة متأنِّية . إن مثل هذا التقسيم هو الذى يتّفق ـ وحده ـ مع متغيرات العصر، ولعل أهم هذه المتغيّرات، هو الوفرة فيما تُنتجه المطابع كل يوم ، فى كل مجال من مجالات العِلم والمَعرفة ، مما يجعل متابعة ما تُصدره المطابع ضربا من ضروب المستحيل .

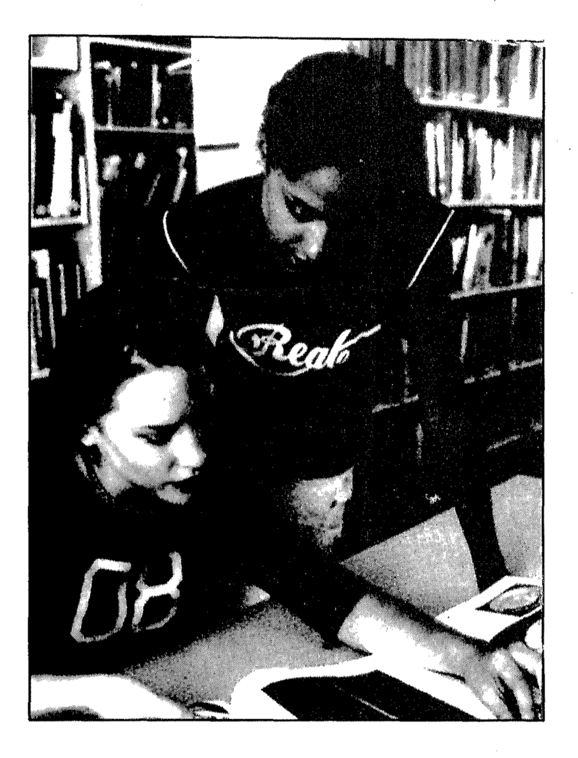
وإذا ما أضفنا إلى ما تُصدره المطابع من كُتب ، ما تُصدره شبكات

المعلومات الإليكترونية المختلفة، وجدنا أمر المتابعة لكل ما يصدُر أمرا يتطلّب أجهزة متعدّدة ، لا جهازا واحدا ، ويصعُب على فرد بمفرده أن يتابع ما يصدُر ، هنا وهناك .

إن القراءة السريعة هى قراءة العصر، وبها يستطيع القارىء أن يتنقَّل بين فقرات ما يقرؤه، يلتقط جُملة من هنا وجملة من هناك فى داخل كل فقرة، ليتأكد ـ فى وقت قصير ـ من أن موضوع الكتاب هو الموضوع الذى ينشده، ومن أن معالجة الموضوع معالجة تستحقّ أن تُتابَع بدقة وعناية ، ومن ثم يكون الكتاب مما يستحق أن يُقرأ قراءة متأنّية ، فقرة فقرة، وجملة جملة . . وبعناية تحدّدها أهميةُ الموضوع بالنسبة لمن يقرؤه ، ودقة معالجة هذا الموضوع، وأسلوب المعالجة بطبيعة الحال .

وفى هذه القراءة المتأنية، إذا كنتَ تقرأ بهدف جمع مادّة لرسالة علمية، تحصُل بها على درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات، أو بهدَف جمع هذه المادة العلمية لدراسة تقوم بها، صغيرة كانت أو كبيرة، فإنه يكون مُفيدا لك ألا تكتفى بالقراءة ، مهما كانت متأنية، وإنما تقوم بنقل الفقرات ـ أو الأجزاء ـ التى ترى أنها يمكن أن تُفيدك فى عملك الذى تقوم به، نقلا أمينا، وبالنصّ ، وبين أقواس ، محدِّدا ـ بعده ـ الكتاب الذى اقتبستَ منه، والصفحة ـ أو الصفحات ـ التى اقتبستَ منها ، فى ورقة مستقلة . . حتى تتمكّن من تحريكها حسبَما تتطلب كتابتك فى هذا العمل، بدلا من الرجوع إلى الكتاب ـ أو غيره من الكُتب ـ كلما وجدت نفسك مضطرا إلى توثيق أفكارك، التى تستند فيها إلى الثقات ، تأييدا لهذه الأفكار.

ولا شك فى أن اختيار ما تنقله، لاحتمال الرجوع إليه عند الكتابة، مهارة



● ولن يضيركَ فى شىءٍ .. إذا أنت نقلتَ ما يُعجبك مِمّا تقرؤه.

من مهارات البحث العلمى، التى يتم التدريب عليها، ولذلك تسجّل رسائل الماجستير و الدكتوراه تحت إشراف مشرِف أو أكثر، لتعليم الطالب مهارات البحث والكتابة. . كما أن الرسائل لا تتم مناقشتها إلا بعد كتابة المشرف ـ أو المشرفين ـ تقريرا بصلاحيتها للمناقشة ، بحيث لا تشكّل أية جامعة لجنة لمناقشة الرسالة ، إلا بتقرير الصلاحية ذاك .

ولن يضيركَ شيءٌ ـ عزيزى الشاب ـ إذا أنت نقلتَ ما يُعجبك مِمَّا تقرؤه، وجمَّعت الأفكار المتشابهة ـ أو التى تخدم قضية معينة ـ معا . إنك ستجد بذلك أنك تبلور شخصيتك وتنمِّيها وتعمِّقُها . . وقد يُغريك ذلك بأن تفكّر فى الكتابة، وفى التأليف ، حينما تحسّ بأنكَ قد نضجت بالدرجة التى تقتحم بها هذه السوق ـ سوق التأليف ـ الوعرة .

ولا تخَفْ من اقتحام هذه السوق . . فكُلُّ الذين اقتحموها قبلك كانوا خائفين مثَلك ، ولكنهم جازَفُوا ، وبذَلوا الجهد ، فكان اللهُ معهم .

أنت محتاج ـ إذن ـ إلى القراءة السريعة ، حاجتك إلى القراءة المتأنِّية ، لأنك لو اكتفيتَ بالقراءة السريعة، فإن معنى ذلك أنك تحكُم على نفسك بالسطحية، وذلك لأن هذه القراءة السطحية لا تصنع شخصية عِلمية، وإنما يصنع هذه الشخصيةَ العِلميةَ ـ كما سبق فى أكثر من موضع ـ القراءةُ الواعية، الحصيفةُ ، المتأنية .

كذلك فإنك لو اكتفيت بالقراءة المتأنِّية وحدَها ، فإنكَ لن تُنجِز شيئا . إنكَ لن تستطيع ملاحقة ما يُكتبَ .

يُضاف إلى ذلك أنكَ تقرأ ـ حين تقرأ كتابا بعينه مثلا ـ وعيُنك ـ منذ البداية ـ على باب أو فصل بعينه ، على الأرجح ، إن كُنتَ تبحث بحثا عِلميا . . أما إن كنت تقرأ قصة ، فأنت تقرؤها بدقة ، وعينُك على أحداثها، ومتابعة هذه الأحداث .

إنك لا تستطيع أن تقرأ هذه القصّة إلا مرّة واحدة، لتنفعل بأحداثها، وتتابع هذه الأحداث ، وقد تجد نفسَك تُواصل ليلك بنهارك فى قراءتها، إذا كانت أحداثها مثيرة، وحبكتها مُحكَمة ، وأسلوبها جذّابا . ولا تَظُنَّ أن قراءة مِثل هذه القصة ، أو قراءة قصيدة من الشعر، لون من ألوان العبث . . إن مِثل هذه القراءة ـ على العكس من ذلك ـ قد تكون أكثر أهمّية لك ، لأنها زاد لروحك ، يجعلك تحسّ بإنسانيتك بشكل أفضل .

أما بالنسبة للكِتاب العِلمى الأكاديمى . . الجادّ ، فإنه يَصعُب التعامُلُ معه على هذا النحو ، لا لشىء إلا لأنه جادّ ، وقد يكون جافًا كذلك .

إنه يخاطب عقلك ، قبل أن يخاطب عواطفك ومشاعرك ، وإن كانت بعض الأعمال العِلمية ، فى مجالات يصعُب على الكثيرين التعامُل معها ، قد كُتبت فعلا بطريقة مبسّطة ، يستوعبها غيرُ المتخصصين ، وبطريقة جاذبة وأخاذة أيضا .

وأيّا كانت الطريقة التى كُتبت بها هذه الأعمال العِلمية أو الأكاديمية، فإنك ـ عادة ـ تنشغل بقضية معيّنة ، أو موضوع بعينه ، فتجد نفسك تقرأ الكتاب الذى تقرؤه ، مركّزا على مواضع بعينها فى هذا الكتاب ، هى تلك التى تتعرَّض للقضيّة التى تشغلك فى البحث أو الدراسة، ثم تنشغل بقضية أخرى ، فتجد نفسك تقرأ نفس الكتاب ، مركّزا على مواضع أخرى منه ، ذات صلة بالقضية ، ثم تنشغل بقضية ثالثة ، فتقرؤه مركزا على مواضع جديدة . . وهكذا .

* * *

الفصل التاسع

اقرَأ .. واكتُب

اقرَأ .. واكتُب

لو اعتمدتَ فى حياتك القرائية على أن تقرأ فقط ، فإن هذه القراءة لابدّ أن تقودك إلى تشتُّت ، وهذا التشتُّت يزيد ، كلما زادت القراءة . وبدلا من أن تكون القراءة عامل بِناء لك ، فإنها تتحوّل إلى عبء عليك ، يشلّ حركتك فى الحياة ، بينما المفروض فيها أنها تُعينُك ، وتسهّل حركتك فى مواقف الحياة المختلفة .

ذلك أن كل قراءة تقرؤها ، إنما تضيف إلى مخزونك العقلى جديدا ، وأن القراءة – فى هذا الزمان – تتنوّع – وتتشتّت – بين مجالات شتّى من مجالات العلم والمعرفة ، مما يجعل الاحتفاظَ بما تقرؤه – مهما كانت قُدراتك – أمرا بالغ الصعوبة .

ولا تنسَ أن مشاغل الحياة فى هذا الزمان كثيرة كثيرة ، لدرجة تُشَتِّتُ الذهن فعلا ، مما يجعل قُدرة العقل على التركيز تضعُف ، وقُدرة الذاكرة على الاحتفاظ بالمعلومات تضعُف ضعفا أكبر . وقد ساعد على هذا الضعف ـ بطبيعة الحال ـ أن التكنولوجيا قد وفّرت للإنسان المعاصر الفرص لتخزين ما يريد الاحتفاظ به من معلومات ، ومن ثم صار من الحكمة أن يُريح هذا الإنسانُ – المعاصرُ – نفسَه وعقله من عبء تخزين المعلومات ذلك ، ليوجّه طاقته العقلية كلها نحو التفكير والابتكار والإبداع ، وهذا هو التحدّى الكبير ، الذى يواجه نُظم التعليم المعاصرة ، فى العالَم كله . . فهذا هو الفرق بين نظام تعليمى متقدم وآخَر متخلف ، فى حقيقة الأمر .

لم تعد نُظُم التعليم المعاصرة مشغولة بالمعلومات ، فهى - فى حياتنا المعاصرة - مُخَزَّنة فى بطون الكتب، وعلى الشرائط والأسطوانات المُمَغنَطة، التى يسهُل حملُها وتشغيلُها، واستنطاقها، لتحصل منها على ما تريد أن تحصل عليه من هذه المعلومات . . وإنما صار هَمُّ نظم التعليم المعاصرة هو تعليم كيفية استنطاق هذه الأدوات والمعلومات، واستخراج ما تريد استخراجَه من أحشائها، لتفكّر فيه، وتُضيفه إلى نفسك، وتُعيد صياغته، وتُضيف إليه، بنفس القدر الذى يُضيف به إليك هذا الذى تستخرجه منها .

ليست القضيّة ـ إذن ـ عزيزى الشابّ ـ قضية القراءة، هكذا بشكل مُطلَق، ولكنها قضية القراءة التى تُفيدك، وتُمتعك، وتُضيف إليك، وتجعَلك تحسّ بأنها تملأ عليك وقت فراغك، وتُضفِى على حياتك بهجة، ولن تستطيع ذلك إلا إذا أنتَ (وظّفتها) فى حياتك، و (فعّلتها) فى هذه الحياة .

وفيما سبق، كانت نصيحتى لك بأن تقرأ أى عمَل تقرؤه مرتين، أُولاهما قراءة سريعة، تتحسَّس ـ من خلالها ـ قيمة العمل بالنسبة لك، وما يمكن أن يُضيفه إليك، والثانية قراءة متأنّية، تقرأ فيها ـ بدقّة ـ الأجزاء التى تراها تُضيف إليك، ونصحتُك ـ ثَمَّة ـ بأن تسجّل من الفقرات ما تراه جديرا بالتسجيل من وجهة نظَرك، وبأن تقوم ـ بعد ذلك ـ بتصنيف ما جمعتَه من أوراق أو تبويبها، بحيث تتجمَّع لك ـ فى كل مجال ـ أو موضوع ـ رؤى مختلفة .

إنّ مثل هذا التعامُل مع ما تقرؤه، هو الذى يَضمَن لك أن تكون قراءتُك قراءة بِناء لك، لأنها لن تكون ـ حينئذٍ ـ قراءة عشوائية . إنك ستجد نفسك



● إن حوادث الطيران بدأت تزيد فى العالم اليوم بشكل لافت للنظر

فى موضوع بعينه تتعمَّق ، لتُنَمِّى لديك فكرة ، لم تستطع الأوراق التى جمعَتها حوله أن تُشبع عقلك ، فتُتابع القراءة فى هذا الموضوع حتى ترتَوِى بشأنه وتَشبَع . قد يكون هذا الموضوع موضوعا خاصّا جدا ، ولكن عصرنا هذا قد حوَّل كثيرا من هذه الموضوعات الخاصة جدا ، إلى موضوعات عامة ، ومن أوضح الأمثلة على هذه الموضوعات الخاصة جدا ، التى تحوّلت إلى موضوعات عامة ، هندسة الطيران ، والفضاء الخارجى ، ومرض الإيدز.

ومعروف أن موضوع هندسة الطيران مجال ضيّق ومحدود جدا من مجالات الهندسة ، وأن موضوع الفضاء الخارجى مجال ضيّق ومحدود جدا من مجالات علم الفلَك ، وأَنّ مَرض الإيدز (أو نقص المناعة المكتسبة) مجال ضيّق ومحدود جدا من مجالات علم الطبّ . . إلا أن متغيرات الحياة فى العقد الأخير من القرن العشرين ، وخاصة فى السنتين الأخيرتين منه ، قد جعلت هذه المجالات ـ الضيقة والمحدودة ـ تقفز إلى سطح الأحداث ، بالنسبة للمثقفين من الناس على الأقل ، مما يجعل القارئين منهم يتجهون إلى القراءة فيها ، مثلما يجعل مَن لا يحبُّون القراءة يميلون إلى أن يسمَعوا عنها ، ولو من التليفزيون مثلا ، الذى بدأ ـ مع غيره من وسائل الإعلام ـ يلتفت إليها ، ويتحدث عنها .

ذلك أن حوادث الطيران بدأت تزيد فى العالم اليوم بشكل لافت للنظر ، سواء عادت هذه الزيادة إلى عوامل تخريب ، أو إلى عوامل جوية (أو طبيعية) ، أو إلى عوامل فنية . وفى حادث طائرة شركة مصر للطيران فى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٩م ، التى هزّت مشاعرنا جميعا ، وزاد من الفجيعة بسببَها المحاولة الأمريكية لإلصاق التهمة بالطيار المصرى ، واعتبار العمَل عملا إرهابيا قام به ، مستدلّين على ذلك بقول الرجل (توكّلتُ على الله) . . وهنا

بدأت مصر تردّ ، إشفاقا على الشركة وعلى رجالها ، من أن تعصف بها التعويضات المطلوبة لأسر الضحايا، وتَركَّزَ الردّ المصرى فى أن ثمة خطأ موجودا فى مجموعة الذيل، التى لم يستطعْ طاقم الطائرة التحكم فيها .

ومجموعة الذيل فى الطائرة أمر يتصل بهندسة الطيران .

وهنا بدأ كل مصرى يهتمّ بهندسة الطيران، ليعرف ما جرى، خاصة وأن الحادث، بنفس السيناريو، تكرّر فى عدد من حوادث الطيران، فى أنحاء مختلفة من العالم، وأقربها لنا حادث الطائرة التابعة لشركة طيران الخليج، التى سقطت قبل دقائق من هبوطها فى مطار البحرين، بعد الطائرة المصرية التى هوت فى المياه قبالة السواحل الأمريكية بشهور .

إن الهندسة مجال خاصّ من مجالات المعرفة الإنسانية، وهندسة الطيران فرع من فروع الهندسة أشدُّ خصوصية، ولكن الحدَثَ نفسَه كان مما وجَّه الاهتمام إليه، ومما يغْرِى مُحبِّى القراءة بأن يقرءوا فيه، ليعرفوا عنه .

وما قيل عن هندسة الطيران ، يمكن أن يُقَال عن الفضاء الخارجى، الذى شاركنا فيه مؤخَّرا بعدَد من الأقمار الصناعية، بهدف البث الإذاعى والتليفزيونى، لمواجهة الحملة الشرِسة التى يشنّها علينا الإعلام الغربى، وخاصة الأمريكى منه، وهو الإعلام الذى تملكه وتحرّكه إسرائيل والصهيونية العالمية بطبيعة الحال .

وليست قضية الفضاء الخارجى قضية بثّ إذاعى وتليفزيونى فقط ، ولكنها قضية تجسُّس على حركتنا ونشاطنا على مدى الأربع والعشرين ساعة، وهو تجسُّس يصبّ - فى النهاية - فى مصلحة إسرائيل، التى زرعوها فى قلبنا لتقتلعنا من جذورنا أساسا . . ومعنى ذلك أن هذا الفضاء الخارجى قد صار همًّا قوميا لنا جميعا فى منطقتنا العربية . . المستهدَفة من الغرب ومن

الولايات المتحدة ومن الصهيونية العالمَية جميعا، ولم يكن مجرّد قضية بث إذاعى وتليفزيونى فقط ، مع خطورة ما يبثُّونه علينا من سموم، من خلال الأدوات والمعدّات التى تملأ هذا الفضاء الخارجى .

ولا تخلو نشرة من نشرات الأخبار المسائية المصوّرة من أحوال الطقس لأيام قادمة، ومعرفتُها ثمرة من ثمرات هذا الفضاء الخارجى والجوس فى جنباته، مما يعنى أن مسألة الفضاء الخارجى صارت مسألة يمكن أن تُغرِىَ محبّى القراءة بأن يقرءوا فيه، ليعرفوا عنه .

وما قيل عن هندسة الطيران والفضاء الخارجى، يمكن أن يُقال عن مرض الإيدز، الذى هو إفراز الفوضى الجنسية بالدرجة الأولى، وهى الفوضى التى نَفخَر بأن إسلامنا حذَّر منها ابتداء، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، فى مثل قوله سبحانه فى سورة الإسراء (رقم ١٧ من المصحف الشريف) :

﴿ولا تقرَبوا الزنى، إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ (الآية ٣٢) .

ولقد كانت (العفة) هى التى حمت مجتمعنا الإسلامى من (سوء السبيل) الذى حذَّر منه القرآن الكريم فى مثيلات الآية السابقة، وكانت (الفوضى الجنسية) هى التى دمرت مجتمعات أخرى كثيرة، قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره، وهى على وشك تدمير الحضارة الغربية المعاصرة . والمشكلة أن الحضارة الغربية ـ الظاهرة فى عالمنا المعاصر ـ ذاتُ بريق خاصّ فى العالَم الثالث ، الذى لا يلتفت أهله فى حضارة الغرب إلا لهذه التفاهات . . ومن بينها هذه (الحرية) أو (الفوضى) الجنسية، حتى ظهر مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) لينبّه الغافلين .

على أن مشكلة الإيدز هى أن الفوضى الجنسية ليست سببه الوحيد،

فثمة أسباب له غيرها، ومن بينها نقل الدم الملوث به على سبيل المثال . وهكذا صار مرض الإيدز أمرا شاغلا لكل إنسان يعيش على الأرض ، ليتجنّبه، ومن ثم صار همُّه هَمّ المتعفِّفين قبلَ الملوّثين، لأن الملوثين أعماهم الله حتى عن أنفسهم، بعد أن استزلّهم الشيطان، وأما المُتَعَفِّفُون، فإنهم قد هداهم الله إلى الأخذ بالأسباب، للحفاظ على أنفسهم وذويهم، استجابة لأمر الله سبحانه، فالمؤمن «كيِّسٌ فَطِن» ، على حد تعبير الرسول الكريم ﷺ .

إن تحذيرات وزارة الصحة فى وسائل الإعلام من المرض، لَمِمّا يُغرى أى عاقل بالقراءة فيه وعنه، مهما كانت اهتماماتُه وتوجُّهاتُه، ومهما كانت رؤاه الدينية والحياتية، ومهما كان مستوى تعليمه، لأن المسألة ـ بالنسبة لأى إنسان يعيش فى عالمنا المعاصر ـ لم تَعُدْ مسألة عِلم ومعرفة، بقدر ما صارت مسألة (حياة أو موت) .

إنك إذا تعاملت مع هذه المسائل الشاغلة بقراءة عشوائية، فإنك ستجد هذه القراءة لابدّ أن تقودك إلى بلبلة وتشتُّت، ولكن عندما تقرأ ما تقرؤه فى إطار (نظام) للقراءة، تسجّل فيه أهمّ ما تقرأ، فإنك ستجد مِثل هذه المسائل ـ أو المجالات ـ المتفرقة، إنما تنتظم ـ فى النهاية ـ فى نظام واحد .

إنك ستصل إلى أن ما بين هذه العلوم التى تبدو لك متنافرة، من رابطة، أقوى كثيرا مما بينها من تنافُر ، وسيكون ذلك كسبا كبيراً لك ، وللعلم إن أنت سرت فى طريقه ، وواصلتَ هذا السير فى هذا الطريق ، وكسبا كبيرا للتخصُّص الذى تخصصتَ فيه .

* * *

الفصل العاشر

احذَر تقليد غيرك

احذَر تقليد غيرَك

إذا كنتُ قد حذرتُك ـ من قبل ـ عزيزى الشابّ ـ من القراءة العشوائية ، لأنها تقودك إلى الملَل ، ثم إلى العزوف عن القراءة . . فإننى أحذّرك تحذيرا أشدّ من الكتابة العشوائية ، وذلك لأن الكتابة ـ بطبيعتها ـ تتطلب بذلَ جهد أكبر ، وتركيزا أكثر، فإذا لم يكن لهذه الكتابة مردود تحسّ به بسرعة ، فإنك ستعزف عنها بسرعة أشدّ .

إنك لا تنتقى ما تكتُبه مما تقرأ عبثا ، وإنما تنتقيه وفق استراتيجية صنعتَها لنفسك ، تحقّق بها ما تريد تحقيقه من أهداف .

قد تكون هذه الأهداف التى حدَّدتَها أهدافا متواضعة ومحدودة ، من وجهة نظرى أنا أو من وجهة نظر غيرى ، ولكنها ـ من وجهة نظرك أنت ـ أهداف رائعة ، وراقية . . فالمهم أنك مقتنع بها ، وأنك تضع استراتيجية قراءتك لما تقرأ ، واختيارك الفقرات التى تختارها أو تنتقيها من هذا الذى تقرؤه . . فى ضوء هذه الأهداف .

ومرة أخرى ، قد تكون هذه الاستراتيجية أبعد ما تكون عن الاستراتيجية بمعناها العِلمى ، ولكنها ـ من وجهة نظرك أنت ـ سيدة الاستراتيجيات ، ومن ثم فأنت مقتنع بكل خُطوة تخطوها فيها .

واطمئن ـ عزيزى الشابّ ـ فلست وحدك الذى يجد نفسه فى حيرة عندما تحدّد هدفا لما تقرؤه ، وعندما تحوّل هذا الهدف إلى خُطوات إجرائية ، فإننى أؤكد لك أن العُلَماء الكبار يقعون فى حيرة أشدّ ، وأن الفرق بينك وبين عالم كبير، هو نفس الفرق بين سِنّك وسنّه ، وبالتالى بين خبرتك فى مجال القراءة

وتـوظيفهـا وخبرتـه ، وبـين حرصـك علـى التجويـد وحرصـه عليـه .

إنه يدقق فيها يقرأ ويفكر ويكتب، محافظة على اسمه وتاريخه وسُمعته ومحبّة محُبِّيه، بينها أنت تفعل ذلك كله، بقدر من الحرية أكبر، بوصفك لا تزال غَضّا طريّا، لا تزال تبنى نفسك، ولا تزال فى بدايات طريق هذا البناء.

وثق ـ عزيزى الشابّ ـ أنه ـ فى مسألة تحديد هدفه، واستراتيجية عمَله لتحقيق هذا الهدف ـ لا يضع هدفا جامدا غير قابل للتغيير ، كما لا يحدّد استراتيجية نهائية لتحقيق هذا الهدف . . وإنما هو يضع هدفا قابلا للتعديل فى كل وقت، كما أنه يحدّد استراتيجية مرنة، قابلة للتعديل كذلك.

وتكاد مسألة (المرونة) فى التعامل مع الهدف والاستراتيجية، أن تكون هى الفرق بينك وبينه، فأنت تحدّد لنفسك هدفا تتشبث به إلى النهاية، وهو يحدد لنفسه هدفا، يُدخل عليه التعديل تلوَ التعديل، كلما سار فى العمل . . كما أنك تحدّد لنفسك استراتيجية تلتزم بخطواتها، حتى ولو اكتشفتَ أنها تقودك إلى غير ما تشتهى، بينما هو قادر على تحسُّس مَواطِن الضعف وهو يسير وفقها، قُدرته على تعديل مساره مرة ومرة، كلما بدا له بديل أفضل وهو يسير .

وثق ـ عزيزى الشابّ ـ أن هذا العالِم الكبير الذى تتخذه مثلا أعلى لك، كان مثلك عندما كان فى سنّك، يَـجْمُدُ على ما يحدِّده من هدف ، ويتشبَّث بما يراه من استراتيجية، حتى علَّمته التجربة أن يكون مَرِنا فى التعامُل معها، مثلما علَّمته آليّةَ التعديل هنا وهناك ، حتى يخرُج العمل الذى يقوم به وهو أكثر اكتمالا .

بل إننى لا أبالغ إذا قلتُ إن ظروف بَدْئك فى القراءة والكتابة أفضل كثيرا

من ظروف بدئه هو ، عندما كان فى سنّك . لقد كانت المكتبات قليلة ، وكانت المعلومات المتاحة أقلّ ، وكانت الخِبرات فى هذا المجال وذاك محدودة، وكانت فرص التعلّم من الأساتذة ذوى الخبرة فرصا محدودة تماما . . أما اليوم، فالوضع مختلف، والفرصة أمامك مفتوحة تماما، طالما كنت جادّا .

لقد كان الجادُّون من الراغبين فى القرءاة والكتابة كثيرين كثيرين فيما سبق، ولكنهم كانُوا قليلا ما يجدون من يأخذ بأيديهم. أما اليوم ، فإن الجادّين من الشباب قليلون، والأساتذة الكبار يُحزِنُهم قِلَّة عدد هؤلاء الجادّين . . وهى فُرصتك ، إذا كنتَ جادّا فعلا . . أنك ستجد من يمدّ لك اليد ، ويزوّدك بالنصيحة، ويفرَح بما يقدّمه فعلا لك ولغيرك ، من الراغبين فى هذه النصيحة .

لقد تعلّم هؤلاء العلماء الروّاد من خبرتهم وتجربتهم الشخصية بالدرجة الأولى، ومن ثم نضجوا وعَلَوا ولمعوا، وكان لكل منهم شخصيته المتميزة، وبصمتُه التى وضعها على مجال التخصُّص الذى اختاره، فحاوِلْ ألا تكون إلا نفسك .

وتذكّر ـ عزيزى الشابّ ـ أن الحياة لا تَثْرَى بالنسخ المتكرّرة من البشَر، وأن العلم لا يتقدم بالنسخ المتكررة من العلماء ، وإنما تثرَى الحياة ويثْرى العلم بالنماذج المتفرّدة من البشر ومن العلماء جميعا، فحاوِلْ أن تكتشف ذاتك وأنت تقرأ، واكتشفها وأنت تركز فيما تقرؤه، على كُتُب بعينها تختارها لتقرأها، واكتشفها وأنت تختار فقرات بعينها مما تقرؤه، لتكتبها، حتى تعود إليها عند الضرورة .

ولابد أن تتعثّر وأنت تفعل ذلك، ولكن العاقل هو من يتعلم من

عثراته، فحاولْ أن تتذكّر كم وقعتَ وأنت تتعلَم ركوب الدراجة مثلا، ولولا وقوعك هذا ما تعلَّمتَ ركوب الدراجة، ولا تعلَّمتَ مهارات التعامُل معها بعد ذلك، وهى كثيرة كثيرة .

إن من الخير لك فى الحياة على وجه العموم أن تكون إيجابيا، فتجرّب وتخطىء، وتستفيد من خطئك فتتعلَّم منه، وليس خيرا لك على الإطلاق أن تعيش خاملا بليدا، خشية الخطأ، ولا تنسَ أننا إنما نتعلّم من أخطائنا أساسا .

وليس معنى ذلك أن تَلِجَ بابَ العِلم من فراغ، فتدخل مجال القراءة والكتابة من تجربتك الذاتيّة، خاصة وأنى أعلَم - كما ذكرتُ من قبل - أنك لم تتعلَّم من مدرستك شيئا، مثلما لم تتعلّم من الجامعة التى تخرجت فيها، لأنك لم تجرّب أساسا .

إنك لابدّ أن تكون لك قُدوة ، ولكنْ فرقٌ كبيرٌ بين أن تكون لك قُدوة تَقتدِى بها، وبين أن تُلغِى شخصيتك وتجربتك الذاتية وإمكانياتك الخاصّة، بسبَب هذه القُدوة . إن المعنى الحقيقى لاتخاذك قُدوة، هو أن تتأسَّى بها، لا أن تقلدها حرفا بحرف، وشِبرا بشِبر . إن المعنى الحقيقى لاتخاذك قدوة، هو أن تستضىء بتجربتها، لا أن تحترق بنارها، ذوبانا فيها . . هو أن تكتشف ذاتك وإمكانياتك أنت، بنفس الطريقة التى اكتشفَتْ هذه القدوة ذاتهَا وإمكانياتها، وأن تُحسِن استغلال هذه الإمكانيات وفق متغيرات زمانك أنت، ومكانك أنت، بنفس الطريقة التى استغلَّت بها إمكانياتها، وفقَ متغيّرات زمانها هى ومكانها هى .

إن معنى تقليدكَ مَن تتخذه قُدوة لك، هو أنك تبدَأ بشلّ إمكانياتك أنت، فكيف تتوقّع أن تسير فى طريق النجاح ، مشلولا هكذا ؟

إنك لن تستطيع أن تسير فى الحياة، فضلا عن النجاح فيها، إلا بما وَهَبَه الله إياك من مَواهِب وقُدرات ومَلكات وإمكانيات، يُكتب لك النجاح بقدر ما تستطيع أن تستثمرها، وهذه هى وظيفة النظام التعليمى، منذ وُجد هذا النظام على الأرض، منذ أقدم العصور. وقُدرة هذا النظام ـ التعليمى ـ على استثمار ما وُهبه المتعلمون المنتظمون فيه من مَواهب وقُدرات وملَكات وإمكانيات، هى المحكّ الأساسىّ للحُكم على مَدى (كَفاءة) هذا النظام ـ التعليمى ـ وهى المبرِّر الأساسى لما يُنفَق على التعليم من ميزانية ضخمة، بوصف هذا التعليم استثمارًا أيضا، وإن كان عائده لا يَظهَر إلا بعد سنوات تطول، وذلك لأنه استثمار فى الإنسان، وفى استغلال مواهبه ومَلَكاته، لتكون ـ بعدَ تخرجّه ـ مواهب وملكات مبدعة، قادرة على دفع عجلة الحياة، فى كل موقع من مَواقع الحياة على أرض المجتمع، الذى أنفق على هذا التعليم، أو استثمر فيه.

* * *

الفصل الحادى عشر

بــوّبْ ما تقرؤه

بَوّبْ ما تقرؤه

وأيا كانت القُدوة التى تتّخذها ـ عزيزى الشابّ ـ فستجد الطريق الذى سلكتَه هو طريق القراءة والتعلُّم، والصبر عليهما، وتحمُّل الأشواك على طريقهما .

وقد تكون هذه القراءة قد بدأت عَشوائية، يكتشف بها الإنسانُ ذاتَه، وما يميل إليه من الموضوعات، ولكنها لابد أن تتحوّل ـ بعد فترة طالت أو قَصُرت ـ إلى قراءة منظّمة، تنتقى بها ما تقرؤه تحديدا، بل وتنتقى مما تقرؤه فقرات بعينها تنقلها فى ورق خاص بك، نقلا بالنصّ، محدّدا بين أقواس، كاتبا بعده المرجع ـ أو المصدر ـ الذى نقلتَ عنه، بادئا بمؤلّفه ـ أو مؤلفيه ـ ثم عنوان الكتاب، ورقم طبعته، وناشره، والبلد الذى تمّ فيه النشر، كما هو محدّد على عنوان المرجع . . وأخيرا الصفحة – أو الصفحات – التى نقلتَ منها .

سيبدو الأمر لك ـ عزيزى الشابّ ـ غيرَ محتمل . . أن تنقل فى صفحة من الصفحات سطرين أو ثلاثة، أو عشرة أسطر مثلا، ثم تتوقّف، لتكتب بعدها بلون حبر مختلف (أحمر مثلا) بيانات المرجع، التى قد يزيد عدد سطورها عما نقلتَه من أفكار، ولكنها الدقة، التى يجب أن تحرص عليها منذ البداية، وأن تعوّد نفسك عليها، حتى تكون طبعا من طباعكَ . . فالدقة هى السمة الأساسية التى يجب أن يتحلَّى بها مَن يريد أن يسير فى طريق العلم . . الطويل والمُمتع فى نفس الوقت، مهما كانت مشقّة السير فيه .

إنك ستجد مشقة فى عمل ذلك فى البداية، ولكنك ستجد مُتعة فى عَمل ذلك، وخاصة عندما يزيد عدَد الفقرات التى تنقلها، وعدَد الأوراق التى تنقل فيها بالتالى، مما يضطرّك إلى تبويب ما نقلتَه، بمعنى توزيع هذه الأوراق على محاور، بحسب (الفِكرة) التى تدور حولها الورقة. . فمحور عن جغرافية بلد بعينه مثلا، يضم كل الأوراق التى تدور حول جغرافية هذا البلد، ومحور عن التاريخ القديم لهذا البلد مثلا، ومحور عن تاريخه الحديث، ومحور عن التاريخ العامّ للإنسانية. . وهكذا، بحسب الموضوعات، التى جمعتَ أفكارك حولها فى هذه الأوراق . . لتجد نفسك ـ فى كل موضوع ـ أمام مجموعة وِجهات نظَر ، قد تتفق فى الرؤية، وقد تختلف، بل إنها قد تتناقض كذلك، إلا أنها وجهات نظر، لكل منها منطِقها، الذى يبدو وجيها، للقائل بها على الأقلّ .

ستجد نفسَك وأنت تقرأ، يشد انتباهَك موضوعٌ بعينه، لتدور قراءتك حوله، ثم يشد انتباهَك بعد ذلك موضوعٌ آخر . . وهكذا، بحسب تطور أهدافك من القراءة ، وبحسب متغيرات الحياة من حولك، وتجد نفسك ـ وأنت تنقل ما تراه قد يفيدك ويستحقّ أن تنقله ـ تفتح آفاقا جديدة وتقتحمها، وتفتح (ملفّات) جديدة، يحتضن كل (ملفّ) منها محورا جديدا. . لتجد نفسك ـ فى النهاية ـ لا تجمع مجموعة أوراق، وإنما تؤلف لنفسك (دائرة معارف) خاصة بك، من صُنع يدكَ أنت، تنمو هى معك، بقدر ما تنمو أنت معها .

وهكذا ستجد نفسك ـ عزيزى الشاب ـ تقودك القراءة إلى مجالات شتّى، لا يساعدك على أن تلم بما تقرؤه فيها، سوى نقل ما يُعجبك مما تقرأ،

وتبويبه ، ليسهُل عليكَ الرجوعُ إليه ، وبذلك توفّر لنفسك (قاعدة بيانات) متكاملة ، فى كل فرع من فروع المعرفة قرأتَ فيه ، ونقلتَ ما أعجبكَ مما قرأتَ . . (قاعدة) صنعتَها بنفسك ، مفصَّلة عليك أنت دون سواك . . (قاعدة) تشمّ فيها رائحة عَرقك ، وتقرأ فيها تفكيرك وأنت تقرأ كلّ كتاب . . (قاعدة) تبنى عليها ، وتنطلق منها لتعود إليها ، فى كل وقت . . (قاعدة) مرِنة ، قابلة لأن تضيف إليها ، ولأن تعدّل فيها .

ولابدَّ أن تخطىء فى البدايات ، فلا سبيل إلى اكتمال العمَل فى مِثل هذه (القاعدة) إلا سبيل الخطأ ، على أن نتعلّم منه ، ونُصلح مَسارنا فى ضوئه ، وليس ذلك الخطأ الذى نُصرّ عليه وندافع عنه ، بطبيعة الحال .

إننا نقرأ (قواعد البيانات) التى بُذلت فيها جهود كبيرة ، قبلَ نشرها ، فنرى فيها خلَلا ما ، من وِجهة نظَرنا نحن بطبيعة الحال ، ومن ثم لن يكَون غريبا أن نُخطىء نحن ونحن فى البدايات ، وأن نصلح الخللَ الذى نراه فى القاعدة أولا بأول .

وميزة مِثل هذه (القاعدة) أنها قاعدة معلِّمة كذلك ، فأنت تأخذ من التعامُل معها ، ومن الخطأ الذى تكتشفه فيها ، وتعمل على إصلاحه أولا بأول . . دروسا عملية فى النظام ، وفى التعامُل مع الأشياء فى حياتك عامة ، وفى حياتك التعلُّمية خاصة .

إنها تجربة عمَلية لك فى التنظيم . . لن تنساها أبدًا مدى حياتك .

وستجد المشكلات التى تقابلك كلها مشكلات شكلية ، وليست مشكلات جوهرية ، ما دامت تتوفّر لك العزيمة . . مشكلة الورق الذى تكتب فيه ، بمقاس واحد ، ليسهُل عليك تحريكه بين المحاور المختلفة . .

لتضع الورقة وسط أوراق المحور الذى تخدمه . . ثم مشكلة وضع عنوان لكل ورقة على حدة ، تختصر به محتواها ، بدلا من قراءتها كلها . . ثم مشكلة وضع المرجع الذى نقلتَ منه ما فى هذه الورقة . . إلخ .

إنه عمل ضخم ، سيبدو لك فى البداية مُزعِجا ، ولكنه سيكون مُمتِعا فى النهاية .

* * *

الفصل الثانى عشر

حـاوِرْ ونـاقِشْ

حاوِرْ وناقِشْ

رغم أهمية المعلومات المجموعة فى الوَرق، فى كل مجال من مجالاتَ العلم والمعرفة قرأتَ فيه، ونقلتَ عنه، ورغم أهمية تنظيم هذه المعلومات وتبويبها، ليسَهُل عليك الرجوع إليها، كلما احتجتَ إلى هذا الرجوع، إلا أن تلك الأفكار المتناثرة فى الأوراق، تظل عُرضة للتبخُّر، ما لم يتمّ تفعيلُها فى حياتك، أو فى بنائك العقلى على الأقلّ .

ومن هنا كانت نصيحتى لكَ ـ عزيزى الشابّ ـ بأن تكون قراءتك هادفة، لا عشوائية .

إنك حينما تقرأ قراءة هادفة، فإن هذه القراءة ستقودكَ إلى الكتاب الذى يجب أن تقرأه، مثلما ستقودكَ إلى أن تعرف من قراءتك السريعة أىّ المواطن تقرأ بسُرعة ، وأيّها تقرؤه قراءة متأنّية، وأيّها هو الجدير بنقله، لتضمّه إلى (قاعدة البيانات) التى تقوم بجمعها، وهكذا .

وستظل المعلومات التى تجمعها بالقراءة، بما فى ذلك تلك المعلومات التى تقوم بتسجيلها ثُم تبويبها، معلوماتٌ قابلة للتبخُّر ما لم يتمّ تفعيلها كما سبق .

وكنتُ قد نصحتُك من قبل ـ عزيزى الشابّ ـ بأن تكون لك صُحبة على طريق القراءة ذاك، فى المكتبة على سبيل المثال، ومثل هذه الصحبة ستكون مُفيدة لك من نواحٍ متعددة، ذكرتُها لك فى بدايات الكتابة، وادَّخرتُ من هذه النواحى ناحية واحدة، هى مدار الكلام هنا .

إنك حين تقرأ، ستجد نفسَك فى مواجهة أفكار، قد تكون مُثيرة لك، كما ستجد نفسك تصطدم بأفكار قد لا ترتاح لها، وتصطدم بأفكار أخرى لا تستطيع أن تستوعبها، رغم خبرتك التى تُعتبر محدودة، إذا كنتَ فى البدايات، بل إننا نصطدم بمثل هذه الأفكار حتى اليوم، رغم طول القراءة، ورغم الخبرة الطويلة فى هذا المجال، وهذا ليس عيبا، ولكن العيب هو أن تتغافل ذلك .

وأنا شخصيًّا أفرح كثيرا عندما أجد نفسى فى مواجهة مِثل هذه الأفكار ، التى تستفزّنى لأى سبَب من الأسباب .

إن الفكرة التى تستفزّنى ، هى الفكرة التى تضيف إلىّ فى الحقيقة، وذلك لأننى أجد نفسى أجمّع نفسى حولها حتى أستوعبها، فتدخل ضمن منظومة أفكارى، ومن ثم فإننى أجد نفسى أقرؤها مرة ومرة ومرة، حتى (أشبَع) منها . . أما تلك الفكرة التى تصل إلىّ بسُرعة، وأحسّ بأُلفتى معها، فإننى أجد نفسى مضطرا إلى أن أمرّ عليها مرّ الكرام، وبسُرعة شديدة .

وأحسب أنك ستجد نفسك ـ عزيزى الشابّ ـ عندما تقرأ فكرة من هذا النوع . . المستفزّ ، تفعل ما أفعله، طالما أنك تحبّ القراءة مثلَما أحبّها أنا، لأسباب ليس من الضرورى أن تكون هى نفس الأسباب التى أحببتَ أنتَ القراءة من أجلها . . وأحسب أنك تقرأ نفس الأفكار مرة ومرة، وأحسب أنك تختلف عنى فى شىء واحد، هو أنك عندما تضع يدك على الفكرة . . تسارع إلى الحديث عنها، مع أهلك وناسك ومُحبّيك، ورفقة المكتبة الذين حدثتُك عنهم كثيرا قبل ذلك، بينما لا أفعل أنا ذلك كثيرا، مثلما تفعل أنت .

وأنا لا أفعل ذلك كثيرا، لأنى نضجت، بينما أنتَ فى طريقكَ إلى

النضج، ولكن تأكد أننى عندما كنت فى مرحلتك العُمرية، كنتُ أفعل ذلك وزيادة.

إنها درجة النضج هى التى تفرّق بينى وبينك، ومع ذلك فإن الكبار يعرضون أفكارهم ويتحاورون ويتناقشون، ويتفقون ويختلفون، وهم يجتمعون على مثل هذه الأفكار كذلك .

إن ما تفعله أنتَ مع هذه الأفكار المستفِزّة، أفعله أنا أيضا، بصورة أو بأخرى، كما يفعله غيرى وغيرُك، من الكبار ذوى الخبرة بحكم السنّ والتجربة مِثلى . . ومن الصغار العقلاء الذين يسلكون السبيل الصحيح إلى النضج والاكتمال مثلك إن شاء الله .

إن الكبار قرءوا، واستفزّهم بعضُ ما قرءوه، وناقشوا فيه وحاوروا، وتعلموا من هذا النقاش وذلك الحوار مثلما تعلّموا من الكتاب، وربما تعلموا منها أكثر مما تعلّموا من هذا الكتاب. ذلك أن الكبار من هؤلاء الذين يتناقشون ويتحاورون، إنما هم كُتُب مفتوحة، والكتاب الذى أنصحك منذ البداية بمصاحبته دوما، إنما هو من تأليف واحد من هؤلاء الكبار، الذين يتناقشون ويتحاورون، وكثيرا ما يتمخض الحوار والنقاش بين هؤلاء الكبارحول موضوع معيّن، عن فِكرة بعينها، يتّخذ واحد منهم منها موضوعا لكتاب كامل، يبدأ العمل فيه، ويواصل هذا العمل حتى ينتهى منه. بل إننى لا أبالغ إذا قلتُ لك ـ عزيزى الشابّ ـ إن كثيرا من النابهين من أساتذة الجامعة، يلتقطون أفكارهم الذكية، التى تتحول إلى كتابات علمية لها قيمتها، من محاوراتهم ومناقشاتهم مع طلابهم فى المحاضرات، سواء فى ذلك طلاب الدراسات العليا أو طلاب الدرجة الجامعية الأولى جميعا .

ويقودنا ذلك ـ عزيزى الشابّ ـ إلى إفساح مساحة أكبر من الحديث،

لتخصيصها للحديث عن الحوار والنقاش، ودورهما المكمّل للقراءة فى كتاب، أو فى غير الكتاب من المطبوعات، وذلك لأننا لم نتعوّد على الحوار والنقاش فى مراحل تعليمنا المختلفة، مما كان من نتيجته أن الحوار والنقاش صار كلٌّ منهما يعنى فى ثقافتنا الاختلاف، الذى قد يصل إلى حدّ الاقتتال بالأيدى حينا، وباللسان فى معظم الأحيان .

إن النقاش والحوار أمران مهمّان فى أى نظام تعليمى معاصر، حتى إنهما ليكونان أكثر أهمية من الكتاب أحيانا، وذلك لأن المعلومة يمكن الحصول عليها من الحوار والنقاش ، مثلما يمكن الحصول عليها من الكتاب خصوصا، ومن الكلمة المطبوعة على وجه العموم، إلا أنها إذا استُخلِصت من الكتاب، فإنها ستكون عُرضة للنسيان، أما إذا ما استُخلِصت من خلال الحوار والنقاش، فإن عمرها الافتراضى سيكون أطول .

على أن نُظم التعليم فى البلاد المتقدمة لا تهتم بالحوار والنقاش فى المدارس، بوصفها استراتيجية للتعليم والتدريس ، من أجل الحصول على المعلومات فقط، ولكن من أجل تنمية روح المواطنة الذكية فى نفوس الأبناء منذ الصغَر، وذلك بتنمية فردية المتعلّم، وتزكية روح المنافسة بين المتعلمين، وتشجيع الاختلافات فيما بينهم، واستثمار هذه الاختلافات لتنميتهم بوصفهم أفرادا، وللنهُوض بالمجتمع من خلالها (أى الاختلافات) وخلالهم .

إن الاختلاف بين البشر أمر طبيعّى، لأن الله سبحانه عندما خلقهم، إنما خلقهم ليكونوا مختلفين، على حدّ ما نَفَهم من قول الله سبحانه فى سورة هود (رقم ١١ من المصحف الشريف) :

﴿ولو شاء ربُّك لجَعَل الناسَ أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم

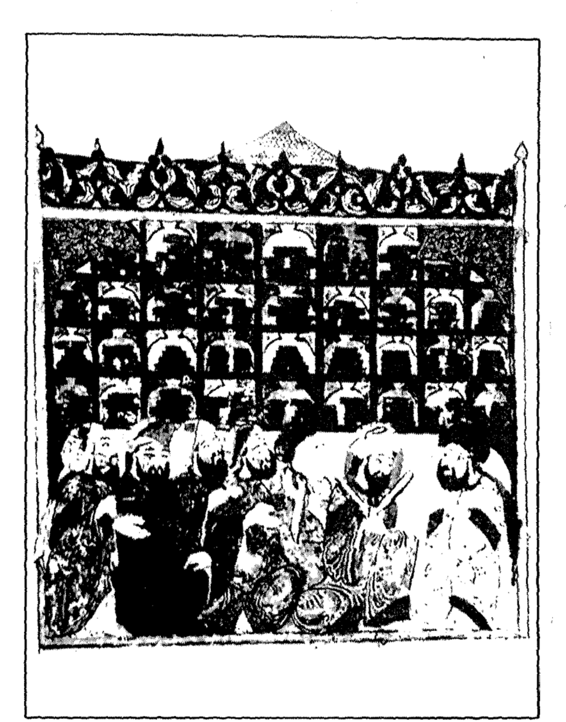
ربُّك ، ولذلك خلقهم . . ﴾ (الآيتان (١١٨ ، ١١٩) .

وما دام الاختلاف بين الناس أمرا طبيعيا ، فإن تنمية روح الاختلاف تكون منطقية ، وتكون منطقية كذلك تنمية (أدَب الاختلاف) فى نفوس المتعلّمين ، وتنمية روح الحوار والنقاش فى ذات الوقت ، وإلا أدّى بهم هذا الاختلاف إلى اقتتال ، كما نراه يحدُث عندنا ، بسبب سوء تربيتنا ، للأسف الشديد .

ويلفت النظر فى هذا المجال أن تراثنا الدينى والحضارى تراثٌ فيه اختلاف كثير ، حتى فى مجال (الفقه) ، الذى هو تقنين لحياة المسلم ، وتقنين لتعامُله مع الناس والأشياء جميعا ، حيث لنَرى الامام الشافعىّ رضى الله عنه مثلا يقول : (رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب) ، وهو كلام لم يختلقه الإمام الشافعى اختلاقا ، وإنما هو استشَفَّهُ من روح الإسلام ذاته ، بوصفه دين كل زمان ، مثلما هو دين كل مكان .

وإذا كان هذا هو شأن الإسلام مع الفقه ، فكيف تتوقع أن يكون شأنه مع غير الفقه من العلوم والمعارف جميعا ؟

إن المؤرّخين يجُمعون على أن الحضارة الإسلامية ، التى سادت العالَم على مدى خمسة قرون كاملة ، امتدت من عام ٧٠٠ وحتى عام ١٢٠٠م ، إنما هى حضارة قامت على الحضارات السابقة عليها كُلهّا ، من فارسية وهندية ويونانية وغيرها ، على ما بين هذه الحضارات من اختلافات ، استطاع الإسلام أن يستوعَبها جميعا ، وأن يصهرها فى بوتقته ، لتخرُج فى النهاية حاملة بصمتَه هو ، التى تزعَّم بها العالَم طوال هذه الفترة ، ليكون بها سيّد العالم فى القوة والنظام ، وفى ارتفاع مستوى الحياة والأدب والفلسفة والطب والتشريع جميعا ، وليكون ذا تأثير بالغ حتى فى أولئك الذين وهبوا أنفسهم



● وما تخلف العالم الإسلامى ـ كما تحدثنا كتب التاريخ ـ إلا عندما أغلق باب الاجتهاد (الرسم يمثل حوار فى أحد المكتبات العامة فى بغداد رسمها الواسطى سنة ١٢٣٧ لمقامات الحريرى ـ محفوظة المكتبة الوطنية ـ باريس).

لمحاربته، والإجهاز عليه، كما نقرأ فى تاريخ الصليبيين القادمين من الغرب، والتتار القادمين من الشرق . . جميعا .

لقد أراد الصليبيون اقتلاعه من جذوره، فعادوا إلى بلادهم محمَّلين بأفكاره، فكان الإصلاح الدينى فى الغرب سنة ١٥١٥م . . وأراد التتار ما أراده الصليبيون، فتحولوا هم إلى الإسلام ، ثم صاروا من أكبر حُماته والمدافعين عنه بعد ذلك، كما تحدّثنا كتُب التاريخ .

وما تخلّف العالم الإسلامى - كما تُحدّثنا كتب التاريخ - إلا عندما أُغلِق باب الاجتهاد، وعندما أُغلق باب الاختلاف بالتالى، وصار جُهد النظام هو (صبّ) الجميع فى قالب واحد، مما يتناقض مع حقيقة الإسلام، كما كانت فى عصور الإسلام المزدهرة جميعا .

* * *

الفصل الثالث عشر

تقبّل الرأى الآخَر

تقبّل الرأى الآخَر

خلق الله سبحانه وتعالى بنى آدم مختلفين، ليكون كل منهم ـ رغم هذا الاختلاف ـ سندًا لأخيه وعونا له. بهذا الاختلاف ورغمه، قبل أى شيء آخر. ولو أن الله خلق بنى آدم متشابهين، أو نسخا مكرَّرة، لصار كل منهم عبئا على الآخَر، أكثر مما هو عون له .

إن بنى آدم ـ بهذا الاختلاف فيما بينهم ـ يتكاملون، وتزداد حياتُهم ثَراء، وتزداد قيمة، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه فى سورة الزخرف (رقم ٤٣ من المصحف الشريف) :

﴿ وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رَجُل من القريتين عظيم. أهم يَقسِمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتَهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضُهم بعضا سُخريا، ورحمة ربك خير مما يجمَعون﴾ (الآيتان ٣١، ٣٢).

فكل إنسان بهذا الاختلاف مسخّر لخَدمة الآخر فى حقيقة الأمر، والإنسان لا يكون سعيدا إلا بهذا التسخير، لأنه بدون هذا التسخير، لا يرقىَ إلى أن يكون خليفة لله فى الأرض، كما خلقه ربّه. فالطبيب مسخّر لخدمة المريض، والمعلم مسخّر لخدمة طالب العلم، ورئيس الدولة مسخر لخدمة رعيّته أو مواطنيه، والأب والأم مسخران لخدمة أبنائهما. . وهذا وذاك يجد مُتعة لا حدود لها إذا وُفِّق فى القيام بالتبِعات الملقاة على عاتقه، على الوجه الذى يُرضيهم ويُسعدهم، مثلما يجد الإحباط إذا هو لم يوفّق إلى القيام بهذه التبعات .

ومعنى ذلك أن بنى آدم يستمتعون بهذا التسخير، بقدر ما يستطيعون القيام بمَهامّه ، ولا يَشقّون به ، كما يمكن أن نفهم من الكتابات التى نقرؤها فى هذا الزمان الأغبر الذى نعيش فيه ، حيث تمّ قلب الحقائق فيه ، لإفساد الحياة ، حتى يسهُل على اليهود التغلغُل فيها ، لتخريبها فى كل مجتمع من المجتمعات المعاصرة ، فى الوقت الذى نرى فيه أى يهودى يعيش فى عالمنا المعاصر، يعتبر نفسَه مسخّرا تسخيرًا كاملا لتحقيق أهداف المخطّط الصهيونى ، الذى يرمى إلى السيطرة على العالَم ، والسيطرة ـ من خلال ذلك ـ على القدس ، لتحقيق هدم المسجد الأقصى ، وإقامة هيكل سليمان المُدَّعَى مكانه .

وهكذا إذا كنتَ ـ عزيزى الشابّ ـ مطالبًا ـ لمصلحتك أنت ـ بأن تحاور وتناقش ، فيما تتوصل إليه من أفكار ورؤى ، استطعت تكوينها من خلال قراءتك ، فإنك يجب ألا تكون استراتيجيتك هى أن تحاور وتناقش ، من أجل الحوار والمناقشة ، أو لتنمية قدرتك على الجدل ، لأنك ستجد نفسك تصمّ أذنيك عن أن تستفيد ممن تحاوره وتناقشه ، كما ستجد نفسك تدافع عما تذهب إليه ، حتى ولو وجدته باطلا .

إنك إنْ فعلتَ ذلك ، ستجد نفسك تسير فى الطريق الذى تخسَر فيه نفسك والعياذُ بالله ، مما يقودُك بالضرورة إلى الندم ، حيث لا ينفع الندم .

قد يكون ذلك منطقيا معك ـ عزيزى الشابّ ـ فى البدايات ، فيتقبّله منك مُحاوِروك ومُناقشوك ، إشفاقا عليك أنك تريد أن تُثبت ذاتك ، آملين أن يتعدَّل سلوكك بعد فترة لا ينبغى أن تطول ، فإذا طالت هذه الفترة ، تحوّل إشفاقُهم عليك إلى رثاء لك ، ثم إلى هجر لك قد يبدأ جميلا ، ثم إذا به

سرعان ما يتحوّل إلى هجر غير جميل، بحسب تماديك فى هذا السلوك الذى نفَر منه أهلُ العلم ومُحِبّوه على وجه العموم .

وليست القضية بالنسبة لك قضية الهجر وحدَه، وإنما القضية تتعدّى ذلك إلى قضية أخطر ، هى قضية حرمان نفسك من مصدر بالغ الأهمية من مصادر العلم والمعرفة، هو مصدر البشر أنفسهم. . وأصحاب الرأى والفكر منهم خاصّة، مِمَّن لا يعدو معه الفِكر الموجود فى كُتبهم أن يكون بعض ما لديهم من عِلم ومعِرفة .

بل إن القضية تتعدّى ذلك كله إلى قضية أخطر، هى قضية الغرور، التى يدعو أىُّ عاقل ربَّه أن يقيه شَرَّه. ألم يكن ذلك الغرُور هو الذى أفسد حياة إبليس، فحوّله من ملاك طاهر، إلى شيطان لعين، على نحو ما نفهم من مثل قول الله سبحانه فى سورة البقرة (رقم ٢ من المصحف الشريف) :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يُفسِد فيها ويسفك الدماءَ ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال إنى أعلَم مالا تَعلَمون . وعلّم أدمَ الأسماءَ كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانكَ لا علمَ لنا إلا ما علَّمتَنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيبَ السموات والأرض، وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتُمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس، أبَى واستكبَر وكان من الكافرين﴾ (الآيات ٣٠ ـ ٣٣).

إن مجال العلم ـ عزيزى الشابّ ـ مجال طاهر، لا يدخل الغرور ـ على طريقه ـ قلبا إلا تحوّل به إلى شيطان، لا يستطيع أن يدمّر إلا مغرورين به فى البداية، قبل أن يدمّر نفسه فى النهاية .

وما دمتَ قد دخلتَ مجال العلم من باب القراءة، بوصفها هى الطريق الآمن لحياة هادئة وهانئة فى مجتمعنا المعاصر. المائج الهائج، المفتوح السموات، والذى استطاعت الصهيونية العالمية أن تعصف بكل شىء جميل فيه، لتحقيق سيطرتها عليه، وذلك من خلال سيطرتها على وسائل التثقيف والإعلام فى الغرب عامة، وفى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة. . ومن خلال هيمنتها على الولايات المتحدة الأمريكية، ومراكز صُنع القرار فيها، بوصفها (أى الولايات المتحدة) هى سيّدة ما يسمى بالنظام العالمى الجديد. . ما دمت قد دخلت مجال العلم من باب القراءة لما سبق، فإنك تكون قد دخلتَه من باب مبارك وطيب من أبوابه، مما لابد أن يَحُول بينك وبين ذلك الغرور الكاذب.

وإذا ما استطعتَ أن تتجنَّب هذا الغرور الكاذب، فإنك ستضمَن ـ عزيزى الشابّ ـ أنك ستستمر فى قراءتك، وستستمتع بها، وستجنى الثمار الطيّبة لهذا الاستمرار، والاستمتاع بما تقرأ.

ومن ثمرات هذا الاستمتاع بما تقرأ ـ عزيزى الشابّ ـ أن تجد نفسك لا تحبّ أن تقرأ إلا قراءة هادفة، تُضيف بها إليك، وتكوّن من خلالها رؤية، وتشكّل بها رأيا، تحب أن تناقش غيرك فيه وتُحاوره، وتستمتع بالاختلاف مع مَن تحاوره، استمتاعا لا يقلّ عن استمتاعك بالاتفاق معه، إن لم يزد.

إن هذا الاختلاف معك فيما تراه، هو الذى يُضيف إليك وينمّيك كما سبق فى أكثر من موضع من هذا العمل الذى تقرؤه، ومن ثم تجد العلماء فى كل تخصُّص من التخصّصات يختلفون، ويكون هذا الاختلاف فيما بينهم بداية تآلُفهم وتحَابِّهم وتعاوُنهم وتآزُرهم، على عكس ما نراه يحدُث بين غير السائرين فى طريق العلم.

قَدَرُنا ـ عزيزى الشابّ ـ أننا جميعا إفراز نظام تعليمى متخلّف . . دليل تخلُّفه أنّ مِثلى ومِثلك كُتب عليه أن يجتازه، دون أن يدرى السبَب الذى مِن أجله نجح فيما نجح فيه، مثلما لا يدرى مَن فشل فى أن يجتازه سبَبَ فشله، مما جعل الموازين تختلّ فى أيدى مَن نجحَ ومَن فشل جميعا . . فصَار كلاهما لا يرى رأيا غير الذى يراه هو ، مهما جانبَ رأيه الصواب، فصار ما بين خريجى هذا النظام ـ الناجحين منهم والفاشلين ـ من التنافُر والتباعُد، أكثر مما بينهم من إمكانيات الالتقاء على كلمة سواء .

وكم أنا سعيد بك ـ عزيزى الشابّ ـ أنك بعد انفلاتك من (مقصلة) هذا النظام التعليمى المتخلّف، قد عُدت إلى صوابك، ورُحتَ تربّى نفسك بنفسك، لتضع قدميك على الطريق الصحيح، فى الوقت الذى رَضىَ فيه الملايين مِمَّن خرّجهم هذا النظام، منذ أمد بعيد، بقهر هذا النظام لهم، فلم يحاولوا أن يغيروا من أنفسهم ومِن حياتهم، مثلما تفعَل أنت ورفاقُك، ممن اجتمعوا على طريق القراءة، والتفُّوا من حول الكتاب .

وأشكر لك ـ عزيزى الشابّ ـ صبرَك علىّ، حتى وصلت معى إلى هذا الموقع الأخير من فكرة الكتاب، وهو الموقع الخاص بتقبُّل الرأى الآخر، باعتبار تقبُّل الرأى الآخر ليس مُفيدا لهذا الرأى الآخر، بقدر ما هو مُفيد لكَ أنت بالذات، بوصفكَ خرّيج نظام تعليمى مُتَّهم ـ منذ أيام الاستعمار الأجنبى لبلادنا وحتى اليوم ـ بأنه نظام (أُحادى الرؤية)، كل همّه أن يزرع فى عقول المنتظمين فيه وفى قلوبهم، الرأى الوحيد الذى يراه النظام دون سواه، ويُضفى على هذا الرأى القدسية، حتى إنه يكون هو الطريق الوحيد لاجتياز دهاليز هذا النظام بنجاح .

وهكذا يكون تقبُّلك للرأى الآخَر ـ عزيزى الشابّ ـ هو المُنقذ الوحيد لك

من (أحادية الرؤية)، التى صبغك بها النظام التعليمى العنيف الذى تخرّجتَ منه، إضافة إلى أنه الطريق الأمثل لتوصيلك إلى القراءة الواعية . . والمُفيدة والمُمتِعة جميعا .

وأنا أعرف أن تقبُّل الرأى الآخَر مسألةٌ شاقةٌ عليك، لأنها مسألة نفسية بالدرجة الأولى، إضافة إلى كونها تشكيلة عقلية، ومثل هذه المسائل ـ النفسية / العقلية ـ تتطلّب وقتا لعلاجها، فعليك أن تتخذ خُطوة . . فى طريق هذا العِلاج .



الفصل الرابع عشر

عـودٌ علـى بَـدء

عودٌ على بدء

عودٌ إلى التقديم الذى قدّمتُ به هذا العمَل لك ـ عزيزى الشابّ ـ حيث ختمتُ هذا التقديم بقولى : إنه محاولة منى لتعديل مَسار حياتك فيما يتصل بمسألة القراءة .

ولقد كنتُ أعرِف ـ ابتداء ـ أنك ـ مِثلى ـ إفرازُ ثقافة تزهدَ فى القراءة، سواء فى الأسرة وفى المدرسة جميعا، وأن مجرد إقبالك على القراءة إنما هو تمرُّد على هذه الثقافة، أردتُ أن أحيِّيك عليه، وأوضح لك ـ بالدليل ـ أنك فعلت خيرا حين فكرت فى هذا الإقبال . . مجرد تفكير .

وحين شرعتُ فى العمل فى هذا الكتاب، تخيّلتُك ـ عزيزى الشابّ ـ واحدا من اثنين ، فقد كنتَ ـ فى مخيلتى ـ إما خرّيجا حديثا، تتحسَّس طريقك بعد هذا التخرج، وكانت القراءة أحَد الخيارات التى سلكتَ طريقها، فيما سلكتَ من طُرُق . . وإما خرّيجا قديما، اخترتَ القراءة منذ فترة طويلة، لأسباب خاصّة بك، حتى صارت القراءة جُزءا لا يتجزأ من برنامج حياتكَ اليومى .

ولم يكن ممكنا أن يغيب عن مخيّلتى ـ وأنا أكتب ـ فريقٌ ثالث من الشباب، كم كنت أتمنى أن يصل هذا الكتاب إليه، هو فريق أولئك الذين تخرّجوا ـ قديما أو حديثا ـ من التعليم، وقد أجهز عليهم نظام التعليم إجهازا، فعقَّدهم نفسيا من القراءة، ومن العِلم، ومن التعليم والتعلُّم جميعا . . ولن يصل هذا الكتابُ إليهم إلا بجُهد جهيد، عن طريق صديق جرّب القراءة، وذاق حلاوتَها، فواصَلَ السير فى طريقها . .

ومن ثم كان منطقيا ألا أضع هذا الفريق فى اعتبارى وأنا أكتب .

كما كان منطقيا أن أوجّه خطابى مرة إليك ـ عزيزى الشابّ ـ بوصفك مبتدئا فى القراءة، ومرة ثانية بوصفك محبّا للقراءة .

إنك إذا كنتَ مبتدئا فى القراءة، فستجد نفسك أمام مجموعة من المثبِّطات المالية والمجتمعية، يمكن أن تصرفك عنها، إضافة إلى موقفك النفسى منها ومن الكتاب، منذ أيام الانتظام فى التعليم . . وكان علىّ ـ فى المعالجة ـ أن أجعل هذه المثبِّطات ذاتها، دوافع تقبلها، للالتفات إلى القراءة، والتعوُّد عليها .

أما إذا كنت قد تعوّدت على القراءة، فإن ثمة مثبِّطات من نوع آخر ، يمكن أن تصرفكَ عنها، فى مقدمتها ألا تجد مردودا ماديا أو معنويا يعود عليكَ منها . . وكان علىّ فى المعالجة أن أخفّف عنك أمرَ هذه المثبِّطات، وأن أحوِّلها إلى منشِّطات لك ، على مداومة القراءة .

ولم أشأ أن أجعل معالجتى للقضية ـ فى الحالين ـ معالجة أكاديمية جافّة، نشكو ـ نحن الأكاديميين ـ من جفافها ، فما بال غير الأكاديميين .

لقد حاولتُ أن أُلبس المعالجة ثوبَ (الذاتية)، حتى أكسب ودّك وتعاطُفك معى ابتداء، دون أن أخرج ـ بهذه الذاتية ـ عن (الموضوعية) بطبيعة الحال .

وبهذا المدخل الذى رأيت أنه الأكثر مناسبة لمعالجة الموضوع، استطعتُ أن أدخل عليك برؤية العِلم الأكاديمى، ممتزجة بذاتى، وبتجربتى الشخصية بطبيعة الحال .

كما حرصتُ فى المعالجة على ألا أجعل تجربتى الشخصية عبئًا عليك،

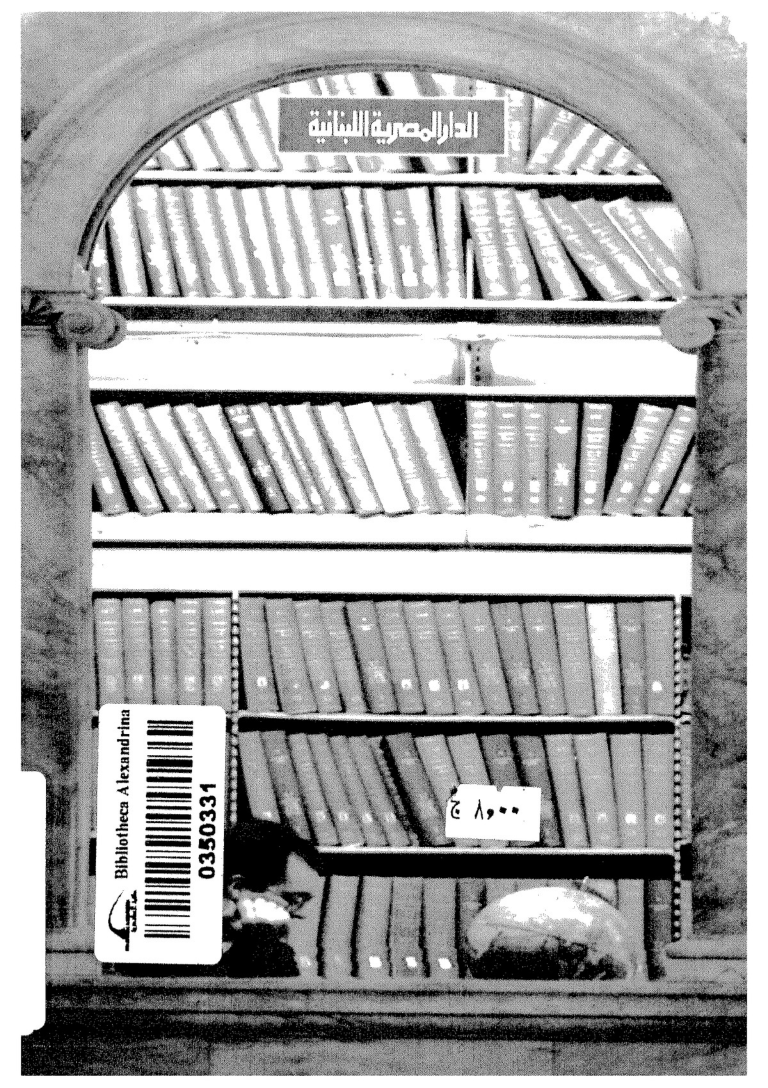
فجعلتُها مجرد نموذج ، يمكن أن تحتذيه ، كما يمكن أن تستفيد منه مجرد استفادة ، لعمل (نموذج) خاصّ بك ، (تُفَصِّلُه) على نفسك ، إذا أردتَ . . إذ تظلّ القضية قضيتك أنتَ وحدَك .

وسواء صنعتَ نموذجك بذاتك ، أو تأثرتَ فى صُنع هذا النموذج بتجربتى الشخصية ، أو بتجربة صديق لك ، فإن مجرد خوضك التجربة مُفيد لك . . فكما أن الإنسان يصنع تجربته ، فإن هذه التجربة ذاتها هى التى تصنع الإنسان ، فالإنسان بدون تجربة يخوضها ، يعيش فى الحياة كما لو كان على هامش هذه الحياة .

* * *

الفهرس

* * *


الدار المصرية اللبنانية
٨,٠٠ ج